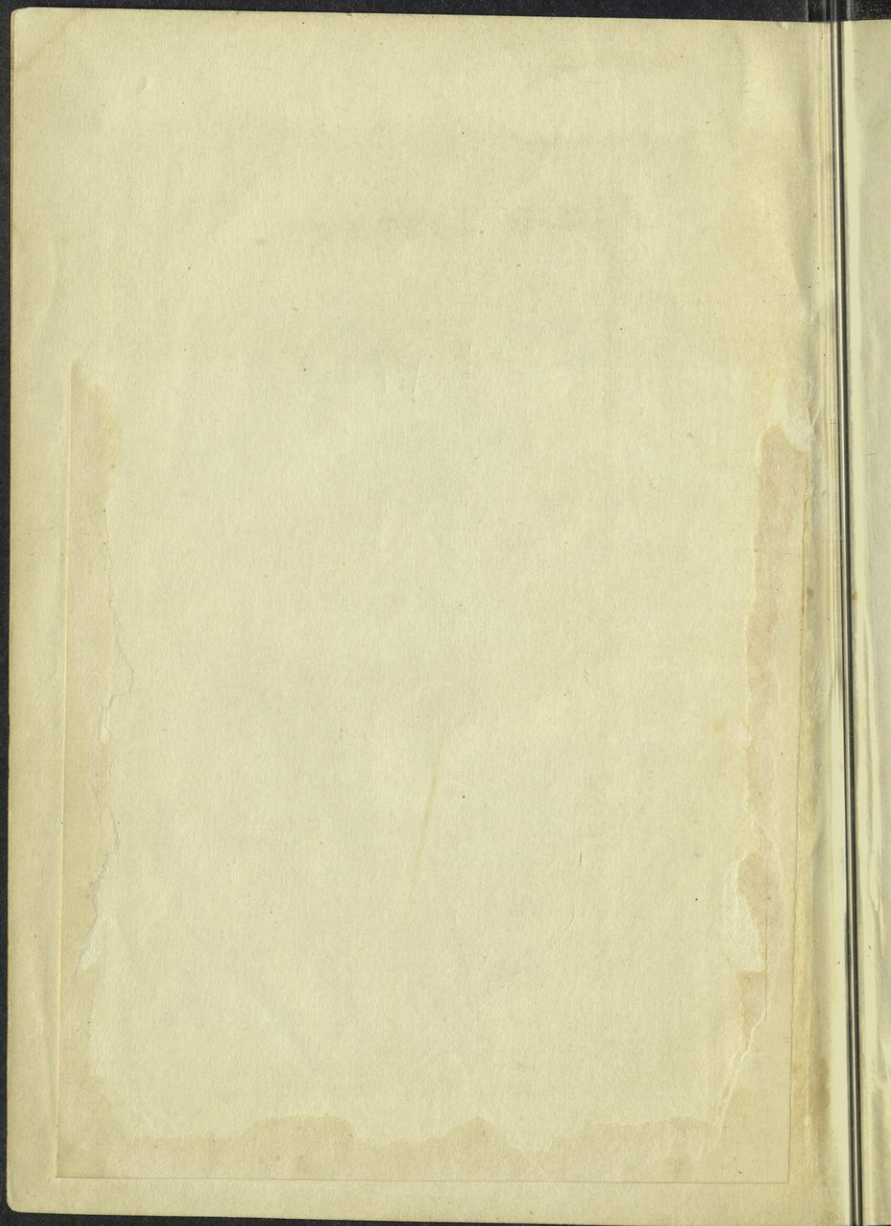


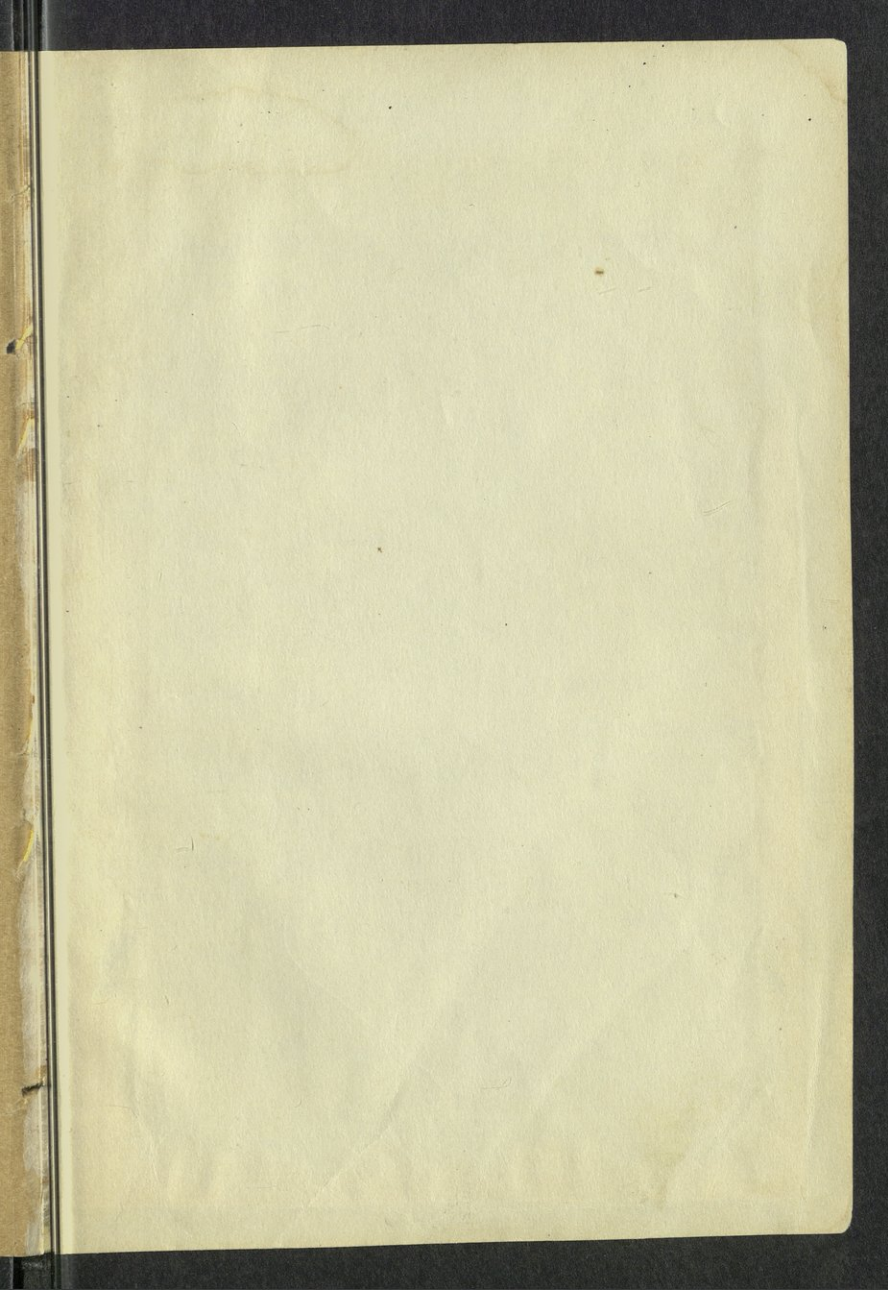
الدهان

شاعر الشعب

892.71
I14dA

A. U. B. LIBRARY





شاعر الشعب

الإعلانات يتفق بشأنها مع

شركة إعلانات الشرق الأوسط

تليفون ٧١١٧؛ القاهرة

٢٢ شارع عبد الخالق ثروت

892.71

I14dA

الدكتور سامي الدهان

شاعر الشعب

اقرا

١٢٠

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

Cat. 23 mar. 53

أقر ١٢٠ - يناير ١٩٥٣



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـبصر

من رأى «حافظاً» نذيراً بشيراً
 غرداً كالهزار أناً وأناً
 ينبر النبرة العزوف فما تسه
 وكأن الأثسير يحمل منها
 فهي عزّ للأريحي المفادي
 وهي خفق اللواء يحدوه من إيقا
 ذاك أن الروح المردّد فيها

جائلاً صائلاً بغير اتئاد
 حرداً كالخضمّ ذى الأزباد
 مع إلاّ أصداءها في الوادي
 كهرباء تهزّ كل فؤاد
 وهي ذل للخائس المتفادي
 ع أبطاله إلى المجد حاد
 روح شعب والصوت صوت بلاد
 خليل مطران

م

الأ

الب

م

وت

الع

الع

الإ

و

يش

المس

العصر

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانت مصر مسرحاً لحوادث خطيرة ، لو وقعت في أية مملكة من ممالك الأرض لأقعدتها عن السعي ، وردتها عن المجد ، وأوردتها موارد البؤس . فقد كانت الدولة العثمانية تحتفظ بالسيادة الاسمية على مصر ، وكانت إنكلترا وفرنسا تعملان على محو الاستقلال ، وتتنافسان في التدخل بشؤونها . وكان الخديو يريد لها للسلالة العلوية موطن الملك ومربع الحكم لا ينازعه في ذلك منازع . وكانت خاصة الشعب المصري موزعة الأهواء ، مقسمة العواطف ، وفريق منها يسير تحت علم الهلال يفرح في حماية الإسلام والجامعة المحمدية ويرى فيه رمز الخلافة واتحاد المسلمين . وفريق يتمسك بالبيت العاوي يرى فيه قوة للسلطان واستقلالاً لمصر ، وبعيداً عن سيطرة الغرب . وفريق ثالث يشس من الأستاذة لضعف المالكين فيها ؛ ومل جور المستعمر المستبد لظلمه وجرائمه ، وكفر بالسلطان لتذبذبه بين العثمانيين

والإنكليز ، فآمن بمصريته ، وتعلقت آماله بالاستقلال ووحد
 النيل ، فهو لا يرى النور إلا بهما ، ولا يجد عضداً إلا بقوتهما .
 وأصاب هؤلاء الأفرقاء جميعاً هزات عنيفة بعثت روح
 اليأس ، فجنح كثير منهم إلى السكوت ، وجنح فريق منهم إلى
 موالاة الاحتلال ، وظلت مصر تتخبط في أمواج السياسة دون
 أن تبلغ شاطئ الأمانى .

أما عامة الشعب المصرى فقد تأرجحت لهذه الهزات ،
 وترنحت لهذه النكبات ، لا تؤمن بالأستانة ولا تدين للندن ،
 ولا ترى الخير ينبعث من أى ميدان فى القاهرة أو قصر من
 قصور الحكم . فانطوت على نفسها ، وسعت وراء العيش تكدح
 من غير أن تصل إلى النعيم أو تنعم بالاستقرار ؛ فهى تصبح على
 وزارة وتمسى على إندار ، وتروح إلى ثورة وتغدو إلى سجن . وما
 يلوح بارق الأمل إلا ليختفى فتحول الاستقلال إلى احتلال ،
 وولد مع الاحتلال الانحلال . عاد الشعب المصرى القهقرى ،
 وخسر فى الميادين جميعاً ، فقد شهد الديون تتراكم ، والضرائب
 تتزايد ، والزراعة تتراجع ، والمدارس تتضاءل ، واللغة العربية
 فى احتضار ، والأخلاق فى خسار . وضاق باضطهاد الغربيين

وظلمهم وخداع الفئة الحاكمة وسياستها الملتوية ، فسار مع تيار
 الجلاء ، وقام ضد التدخل الأجنبي ، وقدم على مذبح الكنانة
 ضحاياه بريئة في سبيل مجد ييزغ ، ونور يسطع ، ومستقبل هنيء .
 وكانت الحركة الفكرية تصل إلى عامة الشعب عن سبيل
 ألسنة ثلاثة : الصحافة ، والخطابة ، والشعر . وقد جاهدت
 هذه الألسنة في نصر مصر حيناً ، وموالاة المستعمر حيناً ،
 وتأييد السلطان أحياناً . ولكنها على اختلاف مبادئها عملت
 على إيقاظ الشعب ، وإثارة الشعور ، وبعث المشاكل . وكان
 جهاد هذه الألسنة مشكوراً أبداً سواء أأصابته في الحق
 ونصرت الخير أم أخفقت ووقعت على الشر ؛ فهي قد سارت
 باللغة العربية شوطاً بعيداً ، ونقلت أساليب الكتابة إلى ميادين
 جديدة . فكان ما نراه اليوم من نثر مرسل يتعد عن السجع
 والتكلف ، وما نقرؤه من شعر يتطرق إلى أبواب لا يعرفها أدبنا
 القديم ، ولا يستغنى عنها أدبنا الحديث .

وهذا النثر وهذا الشعر — كما وصلنا إلينا — يمثلان هذه
 الحقبة ، وينيران سبيل الدراسة لهذا العصر ، ويقربان لنا صورة
 الحياة السياسية والاجتماعية فيها .

وما أعرف شاعراً من شعرائنا خص شعره بأمته وأحداثها في العصر الحديث كما فعل محمد حافظ إبراهيم ، فقد عاش في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، فسجل الأحداث والكوارث ، وحفظ في ديوانه يوميات أمته - إذا صح التعبير - ترى فيها أحوال الكنانة وأعراضها ، بشرها وأحزانها ، بمظاهراتها وثوراتها ، بأنينها وشكواها ويأسها وبؤسها ، فكان شاعر الحياة الاجتماعية ، ومحامى الشعب ، وكان مصوراً للآلام والآمال .

لذلك جاء شعره عنيفاً حيناً ضعيفاً حيناً آخر ، فيه رعدة من الأجنبي طوراً ، وفيه رعود على الأجنبي أطواراً ، يصور الزمن الذى قيل فيه ، والميدان الذى انطلق منه ، والبيئة التى صنع فيها ، والتعاليم التى أوحى إليه . وما الشاعر إلا ابن الأرض والبيئة والزمان ، لا يصح أن نضعه فى غيرها ، وأن نحكم عليه بغير منظارها . وبغير ذلك نظلم الشاعر والأدب والحقيقة .

ونحن إنما نريد فى هذه الصفحات اليسيرة أن نبسط حياة الرجل وشعره وأخلاقه وثقافته كما كان لا كما نريد أن يكون . وللتاريخ أن ينصف الأموات من الأحياء .

حياة محمد حافظ إبراهيم

١

ولادته وصباه

ولد محمد حافظ في سفينة صغيرة (ذهبية) على النيل ببلدة « ديروط » من مديرية أسيوط ، في الرابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ - على أغلب الآراء والظن - من أب مصرى هو المهندس إبراهيم فهمى ، وأم تمت بنسبها إلى أسرة تركية هي الست هانم ابنة أحمد البورصة لى .

وتفتحت عيناه على نهر النيل المبارك أول ما تفتحتا ، واستنشقت رثاه أريج نسيمه منذ ظهر على النور ، فتغلغلت نسماته فى صدره ، وانطبع على حبه ، ولبت طيلة عمره وفيماً بأرضه ، محباً لأهله .

ودرج الطفل مع العام الأول يحبو على أطراف السفينة ثم يقف على سلاسلها فى العام الثانى والثالث ، فإذا كان العام الرابع

سيطر على السفينة حزن شامل لم يفهم كنهه الغلام ، فقد قضى أبوه ، وقدر للصنبي منذ نعومة أظفاره وحدة ووحشة وفقر وبؤس لازمت حياته ، وطبعت أشعاره بطابعها .

واضطرت الأم أن تحمل وحيدها إلى القاهرة لتعيش في كنف أخيها المهندس محمد نيازي ، وتعمل ابنها ، وتقوم بتعليمه وتنشئته . ودخل الطفل المدرسة الخيرية بالقلعة ، يتعلم القراءة والكتابة وبعض العربية ومبادئ الحساب . وظل ينتقل من مدرسة إلى مدرسة حتى دخل المدرسة الخديوية .

فلما انتقل خاله إلى «طنطا» وانتقل البيت معه ، سافر محمد حافظ مع أمه إلى هذه المدينة سنة ١٨٨٧ وسنه إذ ذاك ستة عشر عاماً .

ويبدو أنه راح يقرض الشعر منذ هذه السن فيتعثر حيناً ، وينهض حيناً بجناحين ضعيفين وثقافة بسيطة لم تصلها الدراسة المنظمة ، ولم تهذبها الأساليب العلمية ، وكل زاده فيما نظن كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي . وهذا الكتاب مادة دسمة لنحو اللغة وصرفها ، فيه فنون البلاغة والفصاحة ، وألوان من أمثال العرب وأشعارهم ومختارات من دواوين فحولهم

منذ الجاهلية حتى العصر الحديث . وفيه على ذلك صفحات كثيرة من ديوان محمود سامي البارودي . ولا شك في أن محمد حافظ قرأه وقرأه ، فصقل به ذهنه ، وروض به حافظته ، وشحذ به لسانه ؛ فهو الكتاب الشامل لعصره يثير القرائح الصحيحة ويشحذ الألسنة الفصيحة . وقد وهب الله شاعرنا الصغير لساناً ناطقاً وذاكرة حافظه ، وذهناً متوقداً ، فأخذ بتقليد الشعراء ، وظل يهذى حتى قال الشعر .

وقد ذكر الذين عرفوا الفتى في طفولته أنه كان يعنى بالشعر والأدب عناية لفتت الأنظار إليه ، وجمعت القلوب حوله . فكان يسهر الليل في مطارحة الشعر ومذاكرة نوادر الأدب ، ويسمر في استعادة جيد القريض وطيب الشعر . وقد كتب الأستاذ عبد الوهاب النجار يحيى ذكرى الشاعر قال :

« في صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً في الجامع الأحمدى بطنطا ، وقد سافرت في أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخواني وأصدقائي يلودون بفتى غص الإهاب جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إلى باسم الأديب الشاعر محمد حافظ

إبراهيم . ولم تمض إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا إليه يجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة ، وسرعة خاطر وحضور نادرة .

ونقل الأستاذ النجار محمد حافظ نماذج من شعر يدل على تشاؤم الفتى وتأثره بأبى العلاء :

عجبتُ لعمري كيف مُدَّ فظالا وما أثّرت فيه الهموم فزالا
وللموت ما لى قد أراه مُباعدًا وجل مرادى أن أوسد حالا
فللموتُ خير من حياة أرى بها ذليلا وكنتُ السيد المفضالا

فهذا شعر فتى تظهر عليه ندوب الأمل واليأس والبؤس . ومع ذلك نقل إلينا أنه كان يعبتُ نهاره بالناس ويلهو بالحيوان فيشير جيرانه ويقلق الناس ؛ فإذا شكوه إلى خاله تبرم بهذه البطالة ، وتأثر لهذا الشاب ما يكاد يربح ما يعينه على العيش ، وخاله مهندس تنظيم ، وموظف متوسط الحال لا يستطيع أن ينفق فى سعة ؛ وليس للطفل مال موروث أو أسرة غنية ، وهما مفتاح العيش فى الشرق ، فاختلغا كثيراً ، وقام بينهما النزاع كثيراً .

every day left alone at
school thought all day
it does not me any for days and night

وأخيراً آلى الشاب على نفسه أن يهجر بيت خاله ، وأن
 يقطع دابر الخلاف ، وأن يطرق أبواب الحياة . فلما قرر الهرب
 كتب إلى خاله بهذين البيتين :

ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهية
 فافرح فإني ذاهب متوجّه في داهية

في المحاماة

لم يكن للمحاماة آنذاك في مصر نظام محدود أو قانون مسنون ، فقد كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، ولم يكن للامتحان مكان في ذلك العهد ، وإنما كان للناس أن يدافعوا عن أنفسهم أو يوكلوا من يتولج القضايا ويختص بها . وما كان يشترط في المحامي شهادة أو معرفة ، بل كل ما في الأمر أنها كانت تعتمد على ذلاقة اللسان وحضور الكلام وسرعة التقلب في الأمور وفهم المشاكل الناشئة .

لذلك فكر محمد حافظ في أن يعمل بالمحاماة لعلها تدر عليه بعض المال ، فقصده إلى المحامي محمد الشيمي بطنطا ، واشتغل عنده في مكتبه . وكان يسافر إلى المحاكم القريبة من البلدة ، ويرافع فيها ، لكنه لم يكسب ما يكفيه ، فاختلف مع الأستاذ الشيمي وهجره بعد أن ترك له هذين البيتين :

جرب حُظيَ قد أفرغته طمعاً بباب أستاذنا «الشيمي» ولا عجباً

فعاد لي وهو مملوءٌ فقلتُ له : مِمَّ؟ فقال : من الحشرات واحترَبا
وانتقل إلى مكتب المحامي محمد أبي شادي بطنطا فمكث
عنده مدة في سرور وفرح ، لأنه وجد ما يبعث على التندر
بالأدب ومعالجة الشعر ، ولكن ذلك لم يطل لأن الشاب انتقل
إلى غيره من المحامين ، فعمل في مكتب عبد الكريم فهميم ، ثم
في مكتب إبراهيم الهلباوي . ولا شك في أنه كان كثير الضجر
بالمهنة ، تتطلب إليه العمل والدأب والسفر والمراجعة ، وحافظ
في كل ذلك كسول ملول لا يكاد يعنى بأمر نفسه ، ولا يجد من
الصبر ما يدفعه إلى ترتيب عمله وتنظيم عيشه .

ولا نشك في أنه نظم شعراً خلال هذا العام الذي قضاه مع
المحامين وفي مكاتبهم ، ولكن هذا الشعر ضاع في جملة ما رمى به
الشاعر ، تهاوناً بأمره ، واعتماداً على ذاكرته . ولو وصل إلينا
لبلغنا بفهم هذه الفترة مبلغاً نصف به حياته في طنطا .

من طنطا استنسخ بالحمد
في سنة ١٣٢٠ هـ
مؤلفه : محمد أبو شادي

في المدرسة الحربية

ضاق حافظ بالمحاربة وأساتيدها، وبرم بالقضايا والمرافعات،
كما ضاق بكل شيء في حياته، ففكر في أن يتخذ باباً آخر
للرزق، ومورداً مختلفاً للعيش. وعول على أن يقلد محمود سامي
البارودي، فلعله يصبح ضابطاً خطيراً أو شاعراً كبيراً، تلقى
إليه الأمور الهامة، فتوجه إلى المدرسة الحربية بالقاهرة سنة
١٨٨٨ وعمره إذ ذاك سبعة عشر عاماً.

وكان دخول هذه المدرسة لا يتطلب شهادة ولا يشترط
معرفة. وما هو إلا أن يزج نفسه في غمارها حتى يخرج وعلى
كتفه نجمة وفي خصره سيف.

وكان الجيش والمدرسة الحربية قد وقعتا في قبضة الاستعمار
فنقص من وزهما وعمل على تشويهما، ووقف رجاله على قتل
نشاطهما. وما للاستعمار أن يبعث قوة أو يخلق مصنعا للرجال.
فقال بالجيش حتى قلم أظافره، وبتر منه الأعضاء الصالحة،

فأصبح بؤرة للمرض ، وميداناً للتراخي ، وعدة للأجنبي وسلاحاً على المصري ، يديره ضباط بريطانيون ثقفوا احتقار الشرق وإنكار حقه في الحياة ؛ فأقصوا جميع الضباط الوطنيين من الجيش ، وأصبح الغرض القضاء على روح الشهامة والرجولة والوطنية . وصار يؤخذ للمدرسة الحربية من ساقطى الشهادة الابتدائية .

كذلك كانت المدرسة الحربية عقب الثورة العربية ، صورة للنقمة البريطانية على الجيش المصري الثائر ، فليس فيها إلا ثقافة مريضة ومعارف بسيطة . دخلها محمد حافظ وخرج منها كما دخل ، فلم يتعلق بفن ولم يتعمق في معرفة . وما لنا لا نعتمد على الشاعر نفسه في وصف حالها فقد كتب يقول :

« ولو لم أكن متخرجاً في المدرسة الحربية لكفاني العلم ذلة الفقر والسؤال ، ولكنني خرجت منها كأني المعنى بقول من قال :
الجهلُ شخصٌ يُنادى فوقَ قامته

لا تسألي الربعَ ما في الربعِ من أحد »
ووصف عمل الإنكليز لخراب هذه المدارس ونقمتهم على الجيش فقال :

« دخلوا مصر وفي جيشها من هم أولى سابقة في الفضل
 وخصيص في العلم ، ومن حنكته السنّ وغذّته التجربة ، وخبطته
 الحروب ، فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ، والكيمائي الباهر ،
 والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب
 يوم طرّقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صنفًا صلدًا
 فزحزحوهم عن أماكنهم حتى أصبح الجيش عطلا من كل رجل
 ركين .

« ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغزو أشبال تلك الأسود
 لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها ، وأسرعوا في سلبها كثر
 علومها وتجريدها من حلي فضائلها ، حتى أصبحت كالأخيدة
 السليبية . ثم يتموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهي أشبه
 شيء بمصانع الدجاج ؛ يدخل فيها التلميذ فلا يسلم ستة أشهر
 حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله
 يوم خرج منها ، لا يزيد علمه في الحالين عن يوم خروجه من
 بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسي بأسرع في أخذ
 الصور من تلك المدرسة في تهيئة التلامذة للدخول في الجيش .
 » فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح

العلوم ونضبت سيول المعارف ، وأفقرت غرفها من نجباء التلامذة .
 وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك . وبات يطلبها كل
 فدم وجاهل كما تطلب اليوم الضيعة الخربة » .

فى هذه المدرسة قضى حافظ أربع سنوات حتى تخرج فيها
 سنة ١٨٩١ ، وهو فى العشرين من عمره .

حافظ الضابط

تخرج حافظ برتبة ملازم ثان ، ومن رأى الرجل فى بزته العسكرية ، وقامته المديدة ، وبنائه القوى ، وعضله المفتول ، وشاربيه الطويلين ، والسيف على جنبه لا يعرف أن هذا الضابط يحمل بين جنبه قلب شاعر وحس أديب .

عين حافظ فى الحربية بعد تخرجه ، ولبت ثلاث سنوات ثم نقل إلى ملاك وزارة الداخلية ، فأرسل ملاحظاً إلى بنى سويف — وكانت الداخلية تأخذ من الحربية ضباطها لأن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت فى ذلك الزمن .

ثم انتقل بعد شهور كمعاون بوليس بمركز الإبراهيمية ، وعاد بعد سبعة أشهر إلى وزارة الحربية . وأرسل إلى السودان سنة ١٨٩٦ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

ولا بد من الوقوف فترة قصيرة عند هذا العهد فقد زادت فيه بلية مصر بالاستعمار ، وقال المؤرخون لهذه الحقبة : إنه لم

يكن ثمة عدل ولا قانون ، ولا قضاء ولا حرية ولا مساواة ؛ وكان الضرب بالسوط شائعاً يستعمله الحكام لتحصيل الأموال أو أداة للقسوة والتعذيب . وكان النفي إلى أقاصى السودان عقوبة يعانيتها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكايه ، أو لتقرير ، أو لمحضّر يوقعه من دان بالاستعمار وآمن بالإنكليز .

واعترّ الأجنبى بنصره فى الثورة العربيه وثورة المهدي ، وعززه تدخل أوربة فى فقر مصر المالى ، فاستخف بالشعب وعمل على قمع حركاته بالشدة ، فاستسلم كثير من الناس إلى اليأس . وأخذ كبار البلاد وموظفوها ، ومثقفوها وأعيانها وخاصتها يتنكرون للحركة الوطنية ، متأثرين بهزيمة الثورة وانتصار الاحتلال . وأصبح كثير منهم يبتغون الزلفى للحاكم المستعمر . وأصبح الجيش البريطانى صاحب الحول والطول فى البلاد كلها . وأصبحت الصحافة ، وسيف الظلم مسلط على الرؤوس ، فى خوف وتردد خشية المصادرة والتعطيل . وساد النفاق ، وعم الرياء وتفشى الخنوع والملق للرؤساء ، وأصبح للصغار فى النفوس الموطن والمستقر .

كل هذا والأمم الأوربية ساكتة راضية عن موقف الإنكليز

وجيشهم يفعلون من غير وازع ويأمرون من غير معترض .

في هذه الفترة العصبية أرسل حافظاً إلى السودان وهو في رقة إحساسه ودقة عواطفه ، وعظيم شعوره بالألم والبؤس ، وشديد تعلقه بالقاهرة وأهلها ، فأصبح يكتوى بنار الغيظ ونار القیظ .

وكان الإنكليز يشتدون على المصريين خاصة ، ويسعون في سياسة التفريق إلى تفضيل السودانيين لعل المصريين ينفرون من السودان إلى غير رجعة فيخلو لهم العيش ، ويصبحون السادة الحاكمين من غير رقيب أو عدول .

فلما دخل حافظ السودان عرف ذلك كله فوصف الإنكليز في الجيش يقول :

« ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذوق عيش الترف فليقدم الجيش وينظر إلى الإنجليز في لين عيشه ورخاء باله ، بين متبسم زمانه وعز سلطانه ، إذا صاح ابتدرت صيحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ؛ وإذا لبس القلنسوة كانت لها في النفوس رهبة التاج . وإذا غضب تقطعت لحوف بطشه الأوداج » .

ثم وصف نظرة الإنكليز إلى المصري وتفضيله السوداني

عليه لا شيء إلا ليخلق التفرقة وتشيت الشمل قال :
 « فأى مصرى لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده
 بسواد جدّه ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ، ويحظى عند
 القوم بتلكم الخطوة ، والإنجليزى فى الجيش مشغوف بحبّ
 الأسود من الألوان » .

ثم يصف موقف المصرى من المستعمر فيقول :
 « لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر ، وبات مهضوم
 الجانب غير مرعىّ الجنب ، يعتوره الذلّ والخور ، وتأخذه
 سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مرّ به يوم لحق به النقص .
 « ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة
 المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه
 الإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ،
 ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه
 نعمة التنفس فى جوّ يتنفس الإنجليزى فيه ، وهو إن خاطبه
 بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق أو بإشارة
 يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر » .
 ثم يقول عن أخلاق الإنجليز :

« والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلا من الهند ،
فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سببه » .

لذلك شقى الضابط الشاعر بهذا الإقليم وهذا الوسط ؛
وراح يرسل زفراته الواحدة تلو الأخرى يتحرّق على الخروج من
هذه البيئة ، فلقد أصبح حاله إلى همّ وتسهيد إذ يقول :

فأمسكا الرّاح إنى لا أخامرهما وبلغا الغيد عني سلوة الغيد
ثم امضيا ودعاني إننى رجلٌ قدّ آل أمرى إلى همّ وتسهيد
وبلغ به اليأس أقصاه حتى لقد أصبح يصرخ بلهجة المعرى
قائلاً :

لم تلدنا حواء إلاّ لنشقى ليتها عاطلٌ من الأولادِ
أسلمتّنا إلى صرُوفِ زَمانٍ ثمّ لم تُوصِها بحفظ الودادِ
وزاد شقاؤه فراح يستنجد بإخوانه ، ويستغيث بأصدقائه ،
وفيهم الأستاذ محمد عبده ، فقد كتب إليه من السودان يصف
حاله :

« فلقد حللت السودان حلول الكليم فى التابوت ، والمغاضب
فى جوف الحوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة . لا ،
بل حلول الوزير فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب ،

بين نارين نار القیظ ونار الغیظ
 فنادیْتُ باسم « الشيخ » والقیظُ جمرَةٌ
 یذیبُ دماغ الضَّبِّ والعقلُ ذاهلٌ
 فصیرْتُ کأنی بین رَوْضٍ ومَنهلٍ
 تدبُّ الصَّبَا فیهِ وتشدو البلابِلُ
 وأرسل كذلك إلى صديقه محمد بیرم یشکو ویندب حظه :
 نرحتُ عن الدیار أروم رزقی وأضرب فی المهامه والتَّخوم
 وما غادرتُ فی السودان قَفَرًا ولم أصبغ بتربته أديمی
 وهأنا بین أنياب المنايا وتحت براثن الخطب الجسیم
 ولولا سورَةُ للمَجْدِ عندی قنعتُ بعیشتی قنع الظَّلم
 وكتب كذلك یصف سعيه وإخفاقه ، ويرسم فقره
 وإملاقه فقال :

وما أعذرت حتی كان نعلی دماً ووسادتی وجه التراب
 وحتى صیرتني الشمسُ عبداً صبیغاً بعد ما دبغت إهابی
 وحتى قلم الإملاق ظفري وحتى حطم المقدار نابی
 متى أنا بالغُ یا « مصر » أرضاً أشمُّ بتربها ریح الملاب
 ولیت الأمر وقف بالضابط الشاعر عند الهجير والرياح

السافيات ، وظلم الطبيعة وقسوة البشر ، ولكنه ساقه إلى أمر حاسم يختم به شقاء السودان ليفتح له شقاء آخر .

فقد حدث أن فرنسا قامت تشارك الإنكليز في اقتسام السودان لعلها تحصل على نصيبها من غنائم الاستعمار ، فأرسلت قوة تحتل قسماً من السودان ، ولكن الإنكليز حاربوا زميلتهم وحشدوا لها قوة بالغة تفوقها في العدد والعدد ، فانتصروا عليها في « فاشودة » سنة ١٨٩٩ .

وأصبحت إنكلترا بعد هذا الحادث تخاف القلاقل في السودان ، وقررت أن تستبد به دون سواها ، وعملت كحاكمة مستعمرة ، فأخذت كل حركة تبلو ، وقتلت كل شعور يلوح في الجيش والأمة . وأخذت تجمع السلاح من الجنود خوفاً من ثورتهم وفرقاً من انتقاضهم . أما الجنود المصريون فخافوا على أنفسهم أن يبقوا بغير سلاح في المهمة البعيدة ، فاجتمعوا ووقروا في نفوسهم أن يبلغوا الشكوى والاحتجاج . ولكن الدهاء الإنكليز عرفوا كيف يفسلون الضمائر ويشترون القلوب ، فاستجلبوا السودانيين واتخذوا منهم بطانة سوء تلطم على أسماء المتأمرين . وهنا نترك الكلام للشاعر الكاتب نفسه يصف لنا كيف وقع

« ولما اهتدى ذلك المحقق إلى مالا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ؛ وجمع في خريطته ما يربو على الثمانين اسماً ، خفف إلى كيبيره وقد حمل ظلماً فوالذى علم آدم الأسماء كلها ما اشتملتْ خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه . فلما استكثر الضابط الكبير الأسماء المعروضة عليه طلب أن يضرب عليها بالقداح ، فأصاب سوء الطالع شاعرنا حافظاً مع سبعة عشر ضابطاً آخرين ، فوقع عليهم الاختيار والتهمة ، فقال في ذلك : « ولقد كنتُ أحد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وهأنذا وليس وراء ما بي من سوء الحال غاية » .

وسيق الضباط إلى مصر وحيل بينهم وبين العمل أو الرجوع إلى الجيش ، وأحيلوا على الاستيداع . وعاد حافظ بينهم إلى القاهرة مثقلاً بالهم ، مشبعاً بالبؤس والشقاء وظلم الدنيا ، وقد أحيل على الاستيداع في شهر مايو سنة ١٩٠٠ بعد أن سلخ في السودان سنوات عجافاً لم تغنه ولم تسمن من جوع ، ومع ذلك لم تطل إذ عاج إلى الاستيداع ، فأضحى مرتبه أربعة جنيايات ليس غير .

في صحبة الإمام

يقول الأستاذ داود بركات في ذكرياته عن حافظ :
 « عرفت في أواخر سنة ١٨٩٩ ، وقد جاء من السودان ، أو بالأحرى جىء به منه ، حيث كان ضابطاً في الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشر مع الخديوى عباس الثانى ، ومكاتبته سرّاً بعد افتتاح الخرطوم . عرفته وشوقى يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملاً بالأهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحيوا إلى الاستيداع بطلب اللورد كرومر — وكيل الدولة الإنكليزية — وكان يطلب من الخديوى إعلان استنكار عملهم ، والخديوى يماطل ويتردد ، فلما أحيوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم » .

وهذا يوحى إلينا بأن حافظاً كان ضحية من ضحايا الخديو عباس الثانى ، وأنه كان يعتمد عليه في إيجاد مرتزق له ، فراح

شاعرنا يتقرب منه ، ويرسل إليه الرسائل الشعرية — إذا جاز التعبير — فقد قال فيه يهنئه بعيد الفطر سنة ١٩٠١ :

مليكٌ أباح العيدُ لثمَّ يمينه وياليت ذاك العيد يبسط أعذارى
ويحملُ عني للعزير تحية ويد كرشيئاً من حديثي وأشعاري
ويتضاءل حافظُ أمام الخديو وشاعره فيقول :

لم يبق «أحمد» من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب
فلمستُ ممن سَمِتَ بالشعر همتهم إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربي
لكن عيذك يا «عباس» أنطقني كالبدرا تطلق صوت البلبل الطرب

فهو يمجّد أحمد شوقي ويرفع شأنه ، كأنه يريد أن يظهر له عواطف الشكر لما صنع ، ويدفعه إلى أن يعينه عند الخديو وأصدقاء الخديو ، فيصف شعره بالضعف والتخاذل أمام شعر شوقي ، وكأنه يطمئن زميله إلى أنه لن ينافسه في منصبه عند الملوك .

وقد رأينا أن وساطة الخديو وشاعره لم تنفع في عون حافظ ، فلبث من غير عمل ، وركن إلى البطالة ، فتعلق بأذيال الفقر والحاجة ، وعاد إلى بؤسه وهمومه يتمنى أن لو مات قبل هذا ، فيقول :

لا تطعماني أنياب الملام على هذا العثار فإني مهبط العجب
وَدَدْتُ لو طرخوا بي يومَ جثتهم

في مسبح الخوت أو في مسرح العطب
وهو يرى أن الحرية قد فقدت في مصر ، وأن الحظ قد
مات ، وأنَّ حال بلاده في أسوأ ما يستطيع حتى ليبكى لوضعها
فيقول :

لكنني غيرُ مجودٍ وما فتئت يدالمقادير تُقْصِيْنِي عن الأربِ
متى أرى النيل لا تحلو مواردهُ لغير مُرْتَهَبٍ لله مرتقبِ
فقد غدت مصرٌ في حال إذا ذكرت

جادت جفوني لها بالؤلؤ الرطبِ
إذا نطقتُ فقاعُ السَّجْنِ متكأ

وإن سكتُ فإنَّ النفس لم تطيبِ
ويشكو حافظ انصراف مصر عن شعره وستطول شكواه
من ذلك ، فهو يرى أن المصريين مقصرون في إكباره وجعله في
المرتبة اللائقة به . ولعل سبب ذلك أنه لم يكن يتصل بالمجتمعات
التي تسيغ الشعر وتحفل بصاحبه ، ولم يكن يطرق موضوعات
تتصل بحوادث الساعة — كما نقول اليوم .

فلما اتصل حافظ بمجلس الإمام محمد عبده أفاد منه ثقافة وعلماً ، وأفاد منه صلوات وجاهاً ، فتعرف إلى سعد زغلول وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وإسماعيل صبرى ومحمود سامى البارودى ، وخليل مطران ، وعلى يوسف ، وحفنى ناصف . . . وهؤلاء كانوا عيون الأمة ووجوه الشعب وألسنته الناطقة وصحفه السيارة ، فاستمع إليهم يتناقشون فى القضية المصرية ، وأخذ عنهم هذه الشكوى والوطنية فأفرغ الموضوعات فى شعره وساقها فى قصيده ، فإذا مصر تستمع له عاماً بعد عام حتى سارت بشعره المجتمعات والصحف وردده الخطباء وراح الناس يتغنون به ويعجبون بصاحبه .

ولكن ذلك كله لم يجد على حافظ ، ولم يدر عليه المال فلبث فقيراً معوزاً ، منذ عودته من السودان سنة ١٩٠٠ حتى انقضت عشرة أعوام دخل بعدها الوظيفة .

وإذا كانت هذه الحقبة من الزمن لم تنفع فى مال حافظ وثروته فإنها نفعته فى علمه واتصاله بالموضوعات الهامة فقد أصبح صديقاً للإمام حتى قال فيه : « وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام ، وكنت أتبسط معه على الحديث » . وقال

كذلك يصف هذه المجالس وما كانت تثير في ثقافته وأدبه ،
وما كان لها من أثر في توجيه شعره :

« فلقد كنتُ ألصقُ الناسَ بالإمام ، أغشى داره ، وأردُّ^١
أنهاره ، وألتقطُ ثمارَه فما سمعته يخوض في ذكر السياسة — قبحها
الله — ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، ويتنقل بنا
بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ، ويسمو بأنفسهم إلى
مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . . . »

وقد يخطئ الذين يظنون أن حافظاً سياسياً يعمل في
الأحزاب الوطنية ويقول باسمها ، فهو ينشد شعره باسم الأمة ،
ولا يجد في قوله سياسة ، متبعاً في ذلك خطة أستاذه الإمام محمد
عبده وقد وصفها بقوله :

« يلتقي في الأزهر دروس التفسير ، وفي داره دروس الحكمة
حتى مضى لسبيله ، فإن كانوا يسمون تلاميذه أحزاباً ،
ويقسمون تعاليمه أبواباً ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه
سياسة التقدم والعمران . على أنه كان من أشد الناس تبرماً
بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها . »

ولا يخطئ الدارسُ حين يرى في مجلس الإمام مدرسة

عالية أو جامعة ثقافية ، يتخرج فيها الطالب كما يتخرج في الجامعة سواء بسواء . ولا حرج إذا وجدنا في صلة حافظ بهذه الدروس والمجالس صلة الطالب بالجامعة ، فقد أخذ بها وعب من منافعها ، واستفاد من فوائدها . فكان يقرأ في « المنار » شروحه ، ويحضر مجالسه اللغوية ، فصره شعره بما حفظ وما وعى ، وما أكثر ما يحفظ حافظ وما يعى ، فصقل ألفاظه ، وتمق مفرداته ، وجمل تعابيره حتى كان شعره في العيوق جزالة ومثانة .

وقد حفظ الشاعر للإمام هذه اليد حتى آخر أنفاسه ، ولبت ملازماً له في السفر والحضر . وتابعه في خطته من حيث صلاته مع السلطان والمستعمر والأحزاب . وكان بين اللورد كرومر والإمام تفاهم إلى حد الصداقة ، لعل الذي دفع إليه خوف الإمام من الخديو وتشبهه بكرومر يحميه من شره وغدره . والناس يعرفون أن الشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه سنة ١٨٨٩ أثر الراحة والبعد عن السياسة والعمل للعلم والأخلاق والدين ، فأخذ عليه الناس تخلفه عن الفكاح السياسي وانقطاعه عن أستاذه جمال الدين الأفغانى في المراسلة . وعدوا ذلك عليه

ضعفاً وتراجعاً وتخاذلاً . وزاد في اتهامهم أنه كان مسموع الكلمة عند الحكام المستعمرين ، فتابعه حافظ إبراهيم في سياسته هذه ، ولم يشتد في التقرّيع بالإنكليز مشايعة له أول الأمر ؛ ونحن نجد في « ليالى سطيح » تفسيراً لسياسة الإمام ، قال حافظ :

« ولولا أن الإمام مادّهم جبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصيح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنها شرّ القوم ، ويصلح ما تفسده أهل الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ودفع كارثاً . ولو كان حياً يوم دار الفلك لنا بالنعوس في دنشواى لرأيت غير ذلك الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك التهديد والوعيد » .

لذلك وقف حافظ من الإنكليز موقفه يعاتب وينقد ويسخر ويطلب الرفق والشفقة بهذا الشعب . فلما قضى الإمام سنة ١٩٠٥ فقد يفقده سنداً عظيماً ، فراح يعمل في الترجمة والكتابة والقريض على مدى واسع ، متنقلاً بين أصحاب الإمام وأصدقائه ممن أصبحوا أصدقاءه وخلاّنه .

مع المرأة

في سنة ١٩٠٦ ، أى بعد عام من وفاة الإمام رأى شاعرنا أن يطلق حياة الوحدة ، ففكر في الزواج لعله ينتقل من بيت خاله ، أو يتخذ له مسكناً ينفرد به ، أو ينشئ أسرة تتصل بينه وبين أهلها روابط القرابة والعيش . فتزوج من أسرة بحى « عابدين » ؛ ولكن هذا الزواج لم يمتد أكثر من أربعة أشهر انفصل الزوجان بعدها إلى غير اتصال .

ونحن نجهل كل الجهل ما كان من أثر هذه المرأة في نفسه وعيشه ، فهو لا يتحدث عنها بشيء ، ولا ينبئنا المتصلون به عنها في شيء .

ونكاد نظن أن هذا الشاعر لم يخلق لنظام أو قانون يفرضه الزواج ويمليه البيت ، لذلك نحسب أنه أثر الحرية والانطلاق ، وأحبّ القوضى ، فعاد إلى حياة المقهى وإدمان الشرب ، فكانه

أسف لهذا الاتصال أو كأنه أخفق في هذه التجربة ، فلم يعد إليها طيلة حياته . ولا نعرف أثراً لامرأة أخرى في عيشه ، فقضى من غير أن يترك ذرية أو خلفاً يحمل هذا الاسم .

ولا نرى في ديوانه حباً لامرأة أو تحبباً أو تغزلاً بأنثى ، فقد حرّمته الطبيعة هذه الناحية من الشاعرية ولعل سعيه وراء العيش وأمجاد الحياة ومجالس العلماء والشعراء قد دفعه عن المرأة والتلهى بذكرها أو العيش إلى جانبها .

وفي سنة ١٩٠٨ توفيت أمه ، مثقلة بالأعباء والهموم التي أورثها ابنها ، فهي لم تفتح عينها على مجبوحة العيش منذ انتقل زوجها ، ولم تسعد برفاهية المال منذ نشد ابنها وترعرع ، فهو أبداً ينتقل من عمل إلى عمل ، ومن مكتب إلى مكتب حتى قضت وهو لا يعرف راتباً معيناً إلا راتب المعاش وهو ضئيل .

وتوفي خاله محمد نيازي ، فعاش مع زوجة خاله الست عائشة هانم ، فكانت تعنى به ، وتدبر أمره ، وظلت في قضاء شؤونه حتى قضت قبيل وفاته بثلاث سنين .

والواقع يقتضينا أن نشير إلى أن محمد حافظ إبراهيم وهب روحه للوطن وأهله ، وما انصرف إلى حياة الأسرة إلا أشهراً

معدودة ، قضى فيها صحابة الليل فإذا طلع النهار انسل إلى المقهى
يمضى فى صحبة إخوانه ساعاته ، ويقتل الوقت — كما يقول
الغرييون — فى جدّ القول وهزله ، ما يفتأ جياشاً بصوته الجمهورى
فى المجالس والحلقات ، حتى لقد ظن به الناس أنه مستهتر قليل
الاكتراث بالأسرة وما يتصل بها من روابط ووشائج .

في دار الكتب المصرية

ملّ حافظ هذا اللون من العيش ، وآثر أن يدخل في
وظيفة تعيينه على الحياة ، فسعى عند ناظر المعارف آنذاك أحمد
حشمت فعينه رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية في شهر
مارس سنة ١٩١١ ، بمرتبه قدره ثلاثون جنيهاً . وتنقل في مراتب
الدار حتى أصبح وكيلاً لها ، وحصل على مرتبة البكوية من
الدرجة الثانية وأنعم عليه بعدها بنيشان النيل من الدرجة الرابعة .
وأما عمله خلال هذه الحقبة فقد وصفه الدكتور زكي مبارك
بقوله :

« استطاع أن يتخلص من قيود وظيفته تخلصاً تاماً فكانت
لا تراه في دار الكتب المصرية إلا زائراً ، ولم يستطع الأستاذ
لطفى بك السيد أن يحتجزه في تلك الدار إلا في اللحظات التي
يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق . وكان

- رحمه الله - يخرج من بيته فيظل ينتقل من ناد إلى ناد ومن منزل إلى منزل باحثاً عن أصفياه الذين ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث .

وقال الدكتور طه حسين يصف حافظاً كذلك :

« في سبيل الله هذه الأعوام الطوال التي قضاهها حافظ في دار الكتب لا يعمل شيئاً ولا يقول شيئاً ؛ وإنما يقضى صباحه في الدار يعبث بالموظفين ، ويتندر عليهم أو على باب الدار يدخلن سيجاره الضخم أو في قهوة دار الكتب يدخلن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه في الأندية الخاصة أو العامة . »

وهكذا يتفق الكاتبان في وصف حياته بدار الكتب ، لا يستقر فيها ولا يطول مقامه بها ، على عادة الموظفين آنذاك تختلف على مكاتبهم أكواب الشاي والقهوة ، وتنطلق من غرفهم ضحكات تتلوها ضحكات ، وقد تجمع ثلاثة أو أربعة حول مكتب واحد ، أو ساروا في موكب إلى رئيس الدار ووكيلها يسلمون في الصباح ، ويتندرون في ساعات الفراغ ؛ وما أظن إلا أن أكثر أوقاتهم فراغ . يدور الحديث عن الحرّ أو القرّ ،

والسياسة الداخلية أو الخارجية ، والعلاوات والترقيات ، وقلمما ينشب خلاف حول مشكلة لغوية أو طريقة علمية للطبع ، أو صحيفة عالمية فيها مقال ثقافى أو أدبى .

فى هذه البيئة عاش حافظ عشرين عاماً ، يعبث كما يعبث الموظفون ويتندر كما يتندرون ، ويدخن سيجاره غير ملتفت إلى رقيب أو رئيس ، فقد أَرْضَى مدير الدار فعاونه فى كتاب الأخلاق وغيره ، وله أن ينصرف بعدها إلى لقاء إخوانه فى نوادهم وبيوتهم يتحدث إليهم فى كثير من الحذر والرفق بوظيفته وراتبه .

وقد قال خلال هذه الفترة شعراً كذلك . ولعله كان يلتقط مواد شعره فى جلساته بمقهى « جراسمو » أو « متاتيا » — كما يروى الأستاذ المازنى — وكان خلال هذه الجلسات ينظم الشعر على عادته ، يفيض فى كل مكان كما حدثنا مطران ، فتقتل على ذهنه ولسانه صور الشعب وحياته . ويسمع عن أخبار السياسة الخارجية وحوادث العالم وكوارثه فينظم فى ذلك كله شعراً . فهو يتحدث عن فظائع الطليان فى حرب طرابلس الغرب ، ويصف وحشيتهم فى ضرب بيروت ، ويحيى الطيارين العثمانيين .

ويندد بغليوم إمبراطور ألمانيا لإعلانه الحرب الأولى : ولما تألف
الوفد المصرى ، وتحركت مصر إثر القبض على سعد وصحبه بدأت
مظاهرات سلمية ، وأضرب الطلاب عن تلقى الدروس ،
وخرجت السيدات فى ١٦ مارس ١٩١٩ بمظاهرة عامة ، فوصف
حافظ قيام الجيش ضد النساء ، وتشتيته شملهن فى سخرية
لاذعة قال :

فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنه
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينه
وأثوا « بهندنبرج » مخ تقياً بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهم ن وأشفقوا من كيدهنه
والذين قمعوا المظاهرات من وراء ستارهاهم الإنكليز ،
والذين أمروا بالوقوف ضدها هم رجال الحكومة ، وحافظ
موظف فيها ، وأسلوبه فى هذه القصيدة لا يكاد يختلف عن
أسلوبه فى غيرها : سخرية قوية وكلمات مقرعة من غير أن يعمد
إلى التهديد والوعيد .

ولما قضى سعد زغلول رثاه حافظ إبراهيم فى حفل كبير أقيم
فى ٧ أكتوبر ١٩٢٧ ، فما خاف موقعه من الحكومة ومحلّه من

الوظيفة ومكانه من الراتب ، وما جهل أن الذى يرثيه زعيم قاوم الإنكليز ، وثار عليهم وطالبهم بالاستقلال والحلاء ، فنفوه وعذبوه . وإنما قال حافظ فى جرأة وصراحة يخاطب هؤلاء المستعمرين وهو موظف كما خاطبهم وهو فى حل من كل قيد قال :

وأيتيم بالحائثات ترمى تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملائم جوانب النيل وعداً ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرت منى بقلب أبى أو رأيتم منى إليكم مثابا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أسداً غضابا

هذا هو الموظف بدار الكتب المصرية يعود مع تصفيق الأيدى وصيحة الحناجر إلى مكانه من الدار فى اليوم التالى ، عزيز النفس ، كبير الثقة ، وقد أدى إلى قومه ما أدى من قبل ، لم تمنعه أذنان الحراس والشرطة والسعاة والدسائس من قول الحق والدفاع عن مصر وبكاء رجالها الأفذاذ الوطنيين .

وقد لبث عشرين عاماً لم يفتر ولم يسكت ، على عكس ما قال النقاد فيه ؛ ولعلمهم لو قرعوا الديوان وأنعموا النظر فيه لعاجوا معجبين بوطنية حافظ وشاعريته .

والذين ينقلدون حافظاً يفهمون الوطنية والشجاعة على
غير ما يفهمها الرجل ؛ وقد كفانا هو نفسه تعريف
الشجاعة فقال وهو يرثي محمد المويلحي سنة ١٩٣٠ :

يا شجاعاً وما الشجاعة إلا الصبر — لا الخوض في صدور الصعاب
فهو كاتب وشاعر ، ولم يدّع أنه كان زعيماً وطنياً أو قائداً
حزبياً. ولعله سمع النقد من حوله ، وبلغه أنه ما يفتأ ينوح ويبكي
ويشكو ويتأسى فقال في ذلك :

النوح في الجلى اجتهاد مقصر ألتفت دُعَاء الصَّبرِ غَيْرُ مُجَابِ
فأنا الذي يبكي بشعرٍ خالدٍ يَبْقَى على الأجيال للأعقابِ

وفاته

ظلّ حافظ يندب مضر ورجالاتها واحداً بعد واحد حتى أحس بطول الرحلة وعظم المسافة . وشعر في أواخر حياته بأنه يجب أن يستريح بعد عناء السفر ، فكثيراً ما ردد هذا الملل وهذا الوقوف يبكي أحبابه متلهفاً في كل يوم ، فقد تفرقوا وبقي وحده ، لأن المنون أخرت يومه .

وكان يتتابه المرض الحين بعد الحين فيلزم فراشه خائفاً ، ثم تعود إليه الصحة فيلبث قلقاً أبداً كلما زارته بوادر الضعف وتقلبت عليه عوارض الأمراض ، ولكنه لم يكن يركن إلى بيته طويلاً ولم يقعه الضعف كثيراً .

وبعد خمسة أشهر من إحالته إلى المعاش اعتلّ جسمه ولم يلازمه منزله مع ذلك ولم يلبث في فراشه ، وفي ذات ليلة دعا

صديقين من أصدقائه إلى تناول الطعام معه ، ولكنه لم يستطع
 مشاركتهما ، فتمدد على مقعده ، وبعد انصراف صديقيه أحس
 بالتعب ينهك قواه ، فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، فلم يخفف
 عنه الألم . واستدعى الطبيب إلى منزله بكوبرى القبة ، ولكنه
 وصل والشاعر في النزاع الأخير لا يقوى على كلمة الوداع ،
 فلفظ أنفاسه صباح الخميس ٢١ يوليو ١٩٣٢ ، وقد ناهز
 الستين من عمره .

ونعاه إلى مصر في الساعة الخامسة صباحاً صديقه مدير
 المطبوعات آنذاك إسماعيل شيرين ، فانتشر الخبر في القطر
 المصرى ، وشيعت جنازته في الساعة السادسة ، ومشى وراء نعشه
 جمهور كبير من الأعيان والأدباء ، وحف بالنعش صديقه
 عبد العزيز البشرى و خليل مطران ، فبكيا حتى بللا جدته
 الطاهر ، وبكى الناس لبكائهما . وسار النعش حتى جامع
 الكيخيا حيث صلى عليه .

وسار به موكب السيارات إلى مدافن أهله في مقابر السيدة
 نفيسة فوورى التراب ، وراثه على القبر الأستاذ عباس محمود

العقاد ومحمد المبرورى . ووقف صديقه محمد محمود رئيس حزب
الأحرار الدستوريين يتقبل فيه العزاء .
رحم الله الرجل رحمة واسعة ، فقد كان جريدة مصر الناطقة ،
ولسانها البين ، وشاعرها الاجتماعى ، وترجمان بؤسها وآلامها .

شخصيته وأخلاقه

عاش حافظ إبراهيم غريباً عن الحياة البهيمية لم يطل زواجه ولم يرزق ولداً ، ولم يحس طعم الراحة والنعيم ، وإنما كان ملجؤه المقهى وملهاته الشيشة والسيجار . وقضى وليس من أسرته من يقوم بأمره أو يحذب عليه ، أو يبتث شكاته وأوجاعه ؛ وذلك كثير على شاعر مرهف الحس . لذلك كان يضيق بالناس والحياة ، ويتبرم أبداً ، ويشكو دائماً ، وينظر إلى الأشياء والحوادث من نواحيها المظلمة القائمة ، فكان ناظماً على الدهر ، وتحولت نقمته إلى استخفاف بالدنيا لأن شكاته لم تُجَدِ وصرخاته لم تنفع ؛ فراح يضحك من بؤسه وشقائه ، ويتخذ سبيله إلى الضحك على الناس والسخرية منهم والعبت بأوضاعهم ، والتندر عليهم . ولذلك كان وحده المتكلم في المجالس ، يتحدث فلا ينفد حديثه ، ويقول فلا ينتهي قوله ، ويروى مما يحفظ فما يقف

سيله ، وبهذا نفق سوقه في المجالس ، ونادم الوجهاء والأعيان ،
وأضحك غيره من بلية أو رزية في حين كان قلبه يتألم ويبكى .
وصفه الأستاذ عبد العزيز البشري فقال فيه :

« حافظ إبراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويحتمع له ،
ويكره القبح وينعى على أهله ، يحابه بذلك مجابهة لا يتقى في القول
ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ،
حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة ... »

« ... وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً مما
أصابته يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما
فتئ طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الألف جن
جنونه أو ينفقها في يوم إن استطاع ، فإذا استغلقت عليه أحياناً
وجوه السبل لإتلاف الأموال عد هذا أيضاً من معاكسة الأقدار .
ولعل هذا من أنه نصجت شاعريته في باب شكوى الزمان وقال
فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ،
ويتفقده تفقداً إثاراً لتجويد الصنعة والتبريز في صياغة الكلام .
وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظاً
يحققها بيده إذا قصرت في تحقيقها الأيام . »

والدكتور طه حسين يوافق الأستاذ البشرى على رأيه فى
دعوى البؤس عند حافظ فيقول :

« كان البدع فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء
الحال والافتنان فى شكوى الناس والزمان . وكان ذلك بدعاً فى
العصر الأول من هذا القرن . وكان حافظ يذيع هذا البدع
ويروجّه » .

وكيفما كان الأمر فى هذا البؤس فإن حافظاً قد ذاق ألواناً
من العذاب والفقر والفشل . فقد أراد أن يكون شاعر الحديد
فخاب ، وأن يصبح شاعر الإسلام فحيل بينه وبين الخليفة
العثمانى ، وأن ينفرد بلقب شاعر مصر الأول فلم يوفق .

وحسبنا أن نستعرض أمانيه فى شعره لنرى خيبة الأيام فيها
فقد كتب يخاطب الحديد فى عامه الحديد :

عسى ذلك العام الحديد يسرى ببشرى وهل للبائسين بشير
وينظر لى رب الأريكة نظرة بها ينجلي ليل الأسى وينير
وأنشد فى حفل تكريمه بنزل «الكونتنتال» يعدّ ما فعل فى

سبيل مصر وما لقي من جزاء قال :

وأكرم حتى كأنى نبغت وقمت لمصر بما قد وجب

فماذا أتيت من الباقيات وهذا شبابي ضياعاً ذهب
 عملتُ لقوميَّ جهد المقلَّ على أنه عملٌ مقتضب
 وهل أنا إلا امرؤ شاعر كثير الأمانى قليل النشب

فلا سبق لى فى مجال النهى ولا لى يوم الفخار الغلب
 ولا أنا من عليّة الكاتبين ولا أنا بالشاعر المنتخب

ويعود فى كثير من شعره إلى شكوى دهره وأهله فيقول :
 عقننى الدهر ولولا أننى أوتر الحسنى عققْتُ الأدبا
 أنا لولا أن لى من أمّتى خاذلاً ما بتّ أشكو التّوبّا
 ويقول كذلك :

قد كنتُ عوناً للضعيف وإننى ضعيف ومالى فى الحياة نصيرُ
 ثم يقول فى مكان آخر :

ومالى صديق إن عثرتُ أقالنى ومالى قريب إن قضيتُ بكالى

ويخيل إليه أن حظه فى الآخرة سيّشه حظه فى دنياه فيسائل
 إسماعيل صبرى وهو يرثيه :

أتحت التراب يُضام الكريم ويشقى الحليم ويخفى القمر
 ويهضم حق الأديب الأريب ويطمس فضل النبیه الأغرّ

وقد كان يرضيه أن يدعى البؤس وأن يسمى بائساً فيردّ هذه اللفظة في شعره ، ويردّها في نثره فيقول في صدر ترجمته لكتاب « البؤساء » وهو يهديه إلى الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٣ :

« إنك موئل البائس ومرجع اليائس . وهذا الكتاب أيديك الله قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين ... وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب » . ويقول في المقدمة : « وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس » ، ثم يقول إني ما عربته « لولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء » .

ويقول كذلك في كتابه « ليالى سطيح » :
 « أديب بائس ، وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث فلم تجد له عزماً ولم تصب منه حزمًا » .
 ويقول في هذا الكتاب :

« ونحن بحمد لله في بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصحف حتى إذا ظهر أثره في الناس قامت تقرظه بصنوف المديح والإطراء » .

ويضيف إلى ذلك قوله :

« ولو لم أكن حامل المنزل بعيداً عن الشهرة لكنت أول الصائحين غداً بما وقع في نفسي » .

وقد حاول كثير من النقاد أن يفسروا كلمة البؤس بأنها معنوية وليست مادية ؛ فإن الرجل كان يملك وينفق ، وكان سخيّاً على إخوانه يني أجر ما ابتلعوا وما شربوا في المقهى . وكان سخيّاً على نفسه يمتطي سيارة أجرة في تنقلاته ويشترى السيجار بثلاثين قرشاً ، ويقرض إخوانه مبالغ لا يسأل عنها ولا يحاسب فيما آلت إليه . وقد قرر بعضهم أن لحافظ شخصيتين متعاكستين : أولاهما مرحلة فرحة حين يلقى إخوانه ويحدث أقرانه ، وأخراهما حزينة بائسة حين يتحدث في شعره ونثره فيشكو ويبيت حزنه وألمه .

وقد روى الذين عرفوه أنه كان في السودان على أسوأ حال من الشقاء - كما رأينا - ولكنه كان يداعب صديقه الدكتور إبراهيم الشدودي الرمدي الشهير ، وقد نشرت مجلة « سركيس » مداعبات شعرية لطيفة للرجلين يشك قارئها بأنها لشاعر يكتبون بنار الغيظ والقيظ .

وقد قال الأستاذ سلامة موسى في حافظ :

« أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التي لا تزال تلمع وتسطع في ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم ، يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربي القديم لهذه الكلمة .

وكان وطنياً يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه في أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : (إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب) . وهو عندى ذكرى تترنم بها نفسى » .

وقال الأستاذ البشرى فيه :

« وحافظ لم يكن متحجباً ولا منقبضاً عن الناس ولا برماً بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثراً متدفقاً يسمح بطرائفه كما يسمح بماله وبطعامه ، ما يضمن على أحد بما طالت يده

ولا بما يطول لسانه .

وأحاديثُ الرجل ونكاته ونوادره غدت مضرب الأمثال بين الذين عرفوه . فقد نقل لنا معاصروه كثيراً منها . ذكر الأستاذ حسن الخطيم بعضها قال :

« خرج حافظ إلى مقهى الجندى فى الأوبرا ، وكان يتردد عليه أخيراً من داره بالحيزة عصر كل يوم يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً وحيئة ليدخن نرجيلة هناك فى حوالى خمس دقائق ؛ ثم يدفع ثمنها لخادم القهوة ، وينقده أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف .

والتقى به إذ جلس فى ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الأسبوعية وقال له : إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنياً أنا فى أشد الحاجة إليه . فضحك حافظ وقال له : عمرك أطول من عمرى . »

ثم أضاف الأستاذ الخطيم نكتة أخرى قال :

« أذكره وقد رأى شابين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها ، فقال من فوره للدميم مشيراً لصاحبه الوسيم : هكذا أبناء الأمهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم . كما لن

أنسى طريقة لأحد أدبائنا الأفذاذ إذ بادره بقوله : وعلى هذا الأساس تكون المرحومة والدتك قد دفعت (دوتا) للمرحوم والدك» .
 « وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً . فلما التقى إمام بحافظ دلف إليه فى شأن مady . فقال حافظ : والله يا مولاي كما خلقتنى » .

وأما كرمه وسخاؤه فقد تحدث عنه الأستاذ الحطيم قال :
 « وإني لأذكره فى جلسته فى بار اللواء وقد التف من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون ، وداروا حوله فى شبه حلقة ، وحافظ لا ينقطع (الجرسون) عن التردد على مجلسه ذهاباً وحيثه ، فإذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير » .

وقد روى المازنى خبر مجلس ضمه فى قهوة (جراسمو) مع الشاعر ، فرأى إمام العبد يقبل على حافظ فى لفة وينحنى عليه فى رجاء ، فيدس حافظ يده فى جيبه ، ويخرج حافظه كبيرة يدفعها إلى إمام فى صمت ، وإمام يأخذ منها بضعة جنينيات ثم يرد الحافظة .

وقال المازنى عن أخلاق حافظ :

« إنه لم يكن يمدح أحداً فى وجهه أو فى غيبته نفاقاً أو

إشفاقاً ، فقد كان جريئاً مطمئناً إلى طريقته في الشعر ،
راضياً عنها ، غير راغب في التحول إلى سواها ولا مستعد لذلك .
ويعصف المازني نفس حافظ فيقول :

« كماء النبع الصافي الذي لم يمتزج بعد بتراب الأرض
وأقذارها ، وكانت فيه على إسرافه وجوده قناعة وصبر عجيب
وحياء شديد من الشكوى أو التملل . وكانت رجولته تستنكف
من ذلك وتخشى سوء تأويله » .

وكتب الأستاذ داود بركات يصفه :

« كان شخصيته بارزة ، وأول الأدلة على بروز شخصيته
أنك إذا التقيت به مرة واحدة كانت هذه اللقاء الواحدة كافية
لأن تطبع في ذهنك صورة جسمه القوي العضل الطويل
العريض المتناسق المتلائم الأعضاء ، ورقة صوته وغنته ،
وحركة يديه الفصيحة ، وتهدل جسمه إذا مشى على حركة
يديه كمجدفي السفينة وإرسال عباراته في التبسط أو في الجواب
كأنما كل نبرة تؤكد جازم قاطع لا يقبل جدلاً ولا حواراً » .
ويعضى الأستاذ داود بركات في وصف وطنية حافظ
ودينه فيقول :

« أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها إلا دينه الحمدي .
 فلك من حافظ ما شئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين
 دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من
 سماحة الخلق وحسن الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين
 تقيد بهما » .

والذين يقرعون الديوان يجدون التسامح في كل صفحاته
 فلم يكن حافظ يحمل على المسيحية أو اليهودية ، وإنما كان
 على عكس ذلك يدعو إلى التآخي بين المسلم والمسيحي ،
 فيهب بالأقباط أن يحبوا المسلمين ، وأن يخلصوا لهم الود ،
 فما بين الشريعتين من تناقض أو تخالف . وكان كثيراً ما يشيد
 بصداقته للسوريين المسيحيين ويمحضهم الود والإخلاص ،
 ولا يرى وجودهم في مصر إلا أنهم مع إخوانهم المصريين
 يعملون لرفعة الوطن العربي ، فالشام والكنانة أختان تميل كل
 منهما إلى خير الأخرى ، وليس من الخير أن ترى مصر في
 السوريين منافسين أو غرباء . وقد ألحّ في ذلك حتى امتدح
 الجالية السورية كلها ، وقال في مطران وشبلي شميل وجرجي
 زيدان وأصحاب المقتطف ودار المعارف ، واعترف أنه اغترف

من علمهم وقبس من فضلهم ، وأشاد بأياديهم على مصر ،
فهم يعملون في جدّ ، ويسهرون على أن تكون أعمالهم كاملة
غير منقوصة .

وقد تحدّث في « ليالى سطيح » فأحسن الحديث عن
السوريين ورأى أنهم جديرون بالحب حقيقون بالود ، وأنه لا ينقصهم
إلا أنهم لا يحسنون التنكيت ولا يجيدون التبيكيت ، وأن لهجتهم
وحدها هي التي تختلف ، وفيما سوى ذلك فللشامي من مصر
وطن ومربع ومكان ، وللمصري أن يقلد الشامي في نشاطه وأن
يخذو حذوه في جدّه .

وأما الغرباء في رأى حافظ فهم هؤلاء الذين يستغلون
مصر في غير فائدة لمصر ، ويعملون فيها فيفسدون مواطن
الكسب وطرق العيش على المصريين . وهو يهاجم الإنكليز
لأنهم غرباء عن الديار مختلفون في العرق والنسب . وهو شديد
التعصب للأدب العربي واللغة العربية يفضلهما على آداب
الأمم الأخرى ولغاتها . ويجد في أخلاق الغربيين بايطاليا
وإنكلترا ما يجب أن يقلده المصريون المعاصرون من حبّ للعمل
وسعى وراء النظام ، وترك داء التواكل والإهمال .

ثقافته وأدبه

لم يفد حافظ من المدارس التي دخلها ثقافة عميقة واسعة وإنما أخذ ببعض الكتابة والقراءة ، وتعلق بحفظ الشعر والنثر ، وشحذ لسانه وحافظته بهذه المجالس التي كان يعيد فيها ما حفظ ويكرر ما وعى قلبه . وقد كانت ذاكرته مضرب المثل بين أصحابه حتى لقد قال الأستاذ البشري يصفه :

« يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمراً حتى يأتي على غايتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك في أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال فإذا حافظ يروى بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه

Handwritten: The year will be 1790.

بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف .

بهذه الذاكرة النادرة حفظ صاحبنا أكثر ما قرأ من كتاب « الوسيلة الأدبية » أو « الأغاني » لأبي الفرج ، أو من دواوين الشعراء ، أو من كتاب « المكافأة » أو غيرها من كتب وقعت له ، فأصبح صدره يعجّ بمتنخل الشعر والنثر في ذوق عظيم واختيار لطيف ، ولو قدّر لكاتب أن يجمع من صدره ما وعى حافظ إبراهيم لخرج بديوان شبيه بكتاب الحماسة أو بمختارات البارودي .

وقد قال في ذلك الأستاذ البشرى :

« وإذا كنت ممن يجرى في صناعة الكلام على عرق ، وهيء لك أن يحاضرك حافظ في الأدب لصبّ على سمعك عصارة الشعر العربيّ وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعدّ بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربيّ عرف إلى اليوم » .

وقال فيه خليل مطران :

« حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ، ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها » .

ولكن شاعرنا كان ملولاً قليل الصبر لم يسع إلى التعبير والتأليف والترجمة إلا في ظروف خاصة ؛ وفيما عدا ذلك فإننا نظن أنه كان يكره النظام والتقييد والجلوس إلى عمل معين ، فلم يكن يسجل شعره ولم يكن يجمع أقواله ، ولولا الصحف لضاع ديوانه ، ولولا أنه طبع هذه الكتب الصغيرة في حياته لفقدت كذلك من المكتبة العربية وفقد معها خير كثير . وإذاً البقي لنا من حافظ هذه الصورة القديمة للأديب يدير المجلس بنكاته ونوادره ، ويوزع في جملة أطيب القول من منثر وشعر ، فيسكر الناس بحديثه ويضطربون لقوله ، فإذا انفض السامر ضاع الكلام مع الريح .

ولكننا نحمد الله إذ هياً لنا مجال القول في نشره وشعره ، فقد ترك لنا الرجل من هذا وهذا . وقد بدأ أول كتبه في الترجمة عن الفرنسية في الأخلاق ، نشره بعنوان « التربية الأولية » وهو في شكل سؤال وجواب عن الواجبات البيتية والاجتماعية والقومية ؛ ظهر في جزعين .

* * *

وعرّب بعده عن الفرنسية كتاب « البؤساء » لفيكتور

هوغو ، أخرج منه جزعين صغيرين اختارهما حافظ من أصل كتاب كبير . وقد بذل في الأسلوب جهداً غريباً ، فقد لبث يقلب العربية ومفرداتها وصورها واستعاراتها حتى خرج به عن أسلوب شاعر فرنسه ليلبسه ثوباً أموياً في البؤساء بعيداً عنه كل البعد ، لاصلة بينه وبين الأصل إلا تشابه الأفكار والحوادث . وأما ما سوى ذلك فقد كتبه حافظ ليعرض فيما نرى قوة بلاغته ، وشدة فصاحته ، وعظيم غناه بالمفردات والتراكيب ، فغدا آية من آيات الأسلوب العربي القديم لا يقع من نصوص القرن العشرين إلا بالأسماء الأعجمية الموزعة فيه .

ولن نضرب الأمثلة على جمال الأسلوب ومثانته ، فذلك يضطرنا إلى إثبات الكتاب كله ، فكله حسن بارع مصقول فذ . ولكنه كل شيء إلا أن يكون تعريباً أو ترجمة . ولا يضير حافظاً في هذا تضاوله في الفرنسية ، فلعله عمد إلى ما كان يصنع أبناء زمانه في ترجمة روائع الغرب . ولعلهم كانوا يرون في الترجمة أنها فكرة ينسجها العربي بعد أن يطرح النصّ الغربي جانباً . وما يستطيع أسلوب حافظ أن يلوّن الأشخاص

أو يبدّل من لهجاتهم أو يصطنع تقليد عباراتهم فيسهل حتى
يصوّر أسلوب الشحاذ والمجرم ، ويتعمق حتى يتشبه بأسلوب
المحامى العالم ، فذلك يستطيعه فيكتور هوغو وحده فى أسلوبه
الفرنسى ، ويحقق فيه حافظ إلا إذا كان ينشئ رواية جديدة
للبيّساء على غرار الشاعر الفرنسى .

وقد صدر الكتاب فتناوله الدكتور طه حسين بالنقد
ثم قال :

« فليست تقرأ فى كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى
هذه الأيام أسلوباً أمتن ، ولا تركيباً أرقن ، ولا لفظاً أحسن
اختياراً ، وأشد ملائمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى
هذا الجزء من كتاب البيّساء » .

وقال فيه الأستاذ عباس محمود العقاد بعد نقده :

« فلا خلاف فى أنه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية
وصفحة نادرة من صفحات البلاغة فيها . ولا نغالى إذا قلنا
إننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة فى البلاغة من طبقة بعض
التراجم الإنكليزية فى لغتها » .

وقد اتفق الكاتبان الناقدان على بعد ما بين الأصل والترجمة

ولكنهما حمدا للمعرب أسلوبه في النثر ، فقد خلق فيه تحليقا
أناف فيه على تراكيبه في شعره .

* * *

وَألف حافظ بعده كتيباً عنوانه « ليالى سطيح » جعله
في وصف ما كان يدور بمصر من أحداث وحوادث ، فوصف
الإنكليز في السودان ، ورسم عيشه في الجيش المصرى ،
وتحدث عن كتاب قاسم أمين ، ورأى أن النساء الغربيات
سيطالبن برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات ، ثم تعرض
للسوريين في مصر فانتصر لهم ، وأشاد بخدمتهم للسان العربى ،
وأفاض في الحديث عن أحمد شوقي وأدبه ، ووازن بينه وبينه
على لسان الكاهن سطيح ، ثم تحدث عن الإمام محمد عبده
وواسع علمه وبارع سياسته نحو الإنكليز . ونثر بين أجزاء
الكتاب ما للمصريين من عيوب . وهذه المواضع نفسها
طرقها حافظ في ديوانه فأوسعها بلاغة وبياناً من شعره . فهو
هو في أفكاره لم يتسع أفقه ولم يختلف نثره عن شعره إلا حين
نعد الشعر منحصراً في محور « الخليل بن أحمد » . ولولا ذلك
لتشابه الديوان وهذا الكتاب . ففى « ليالى سطيح » سبع

وجمل قصيرة ، وتراكيب شعرية ، وخیال جيد . وقد جعله
على أسلوب المقامات فيجاری كتاب المویلحی « حديث عيسى
ابن هشام » ولكنه بذه في الأسلوب مما يرفع من مكانة حافظ
فيجعله في صدر الكتاب النادرين للقرن العشرين ؛ ولا يعيبه
إلا ضيق الصفحات وقلة الموضوعات .

ثم عرب حافظ كتاباً في الاقتصاد بالاشتراك مع زميله
الشاعر خليل مطران ، وعنوانه : « الموجز في علم الاقتصاد »
للمؤلف الفرنسي پول لروا بوليه — Paul Leroy Beaulieu
وجعله في خمسة أجزاء ، وقدّمه إلى وزير المعارف أحمد حشمت
وكتب مقدمته حافظ إبراهيم بأسلوبه المسجع ، وحشر فيه
كل ما في قاموس العربية من مفردات غنية تقابل الكلمات
الفنية في الاقتصاد . فجعل للدارسين في هذا العلم اصطلاحات
وتعابير متينة تتفق مع الفرنسية حيناً ، وتختلف عنها حيناً آخر .
وكل ما رمى إليه حافظ قوة اللغة ومثانة التراكيب على عادته .

* * *

وأما السفر الخامس الذي وصل إلينا عن حافظ فهو
ديوانه وسنعرض له فيما يلي . ولكننا قبل أن نختم عن ثقافته

وأدبه ومؤلفاته نحب أن نورد كلمة الأستاذ البشرى عن مكتبة حافظ بعد أن عرفنا مدارسه ومجالسه قال :

« إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس في داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغاني — طبعة بولاق القديمة — وكتاباً أو اثنين في الفرنسية وأثارة من الأقاصيص (الروايات) العصرية المترجمة إلى العربية في لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهنراً بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دسها في جيبه ليقرأها كلما تهيأ له ذلك » .

وهذا دليل جديد على أن حافظاً لم يستق ثقافته من المدارس ولم يأخذ علمه عن الجامعات ، وإنما لقن نفسه الشعر والنثر ، وتعلم في مجالس الإمام محمد عبده ومن كانت تضممه مجالس الإمام أكثر ما علم عن اللغة وفقهها . وأضاف إليها قراءته للكتب القديمة يعتمد عليها كلما واثاه الصبر ، وسكنت نائرة نفسه ، حتى قضى عمره وهو يتتلمذ على الناس والحوادث فكان منه شاعر الشعب ، نشأ فيه ، وعاش معه ، ثم نطق بلسانه .

ديوانه

وُلد حافظ على نهر النيل - كما رأينا - وتنقل عليه من
مصر إلى السودان فشهد من روائع لوحاته وعظيم مشاهدته
ما يبهر الطرف في الإصباح والإمساء . تشرق عليه الشمس
فتنبعث الألوان زاهية ترقص على أمواجه ، وتختال بين
الظلال من خلال النخيل الباسق ، وتغيب عنه فتسبح العين
في سحب رقيقة تحيط بالشمس الحمراء وهي تحتضر مع
المغيب ، فتعيش النفس في سحر مثير ووحى جميل .

وتمتد الصحراء المنبسطة إلى غير نهاية على شطآن النيل ،
وتنعكس عليها أنوار الشمس ، وتضيع في طياتها ألوان السراب
فتبدو كأنها الأبدية أو كأنها البساط الذي يغطي أرض مصر
في رفق ودعة ، وسحر وفتنة .

وأما المعابد المزروعة هنا وهناك من أرض الكنانة في

الشمال والجنوب فهي تذكر بأعجاز المصريين الذين استغلوا
التراب والماء والصخر ، ونحتوا من الطبيعة أهراماً تناهض السماء
وتشهد بالجلد والصبر ، وجمال الهندسة وقدرة الفن ، وهي
كذلك سحر مصر وخلودها .

والبحر الأبيض المتوسط يتلقف مياه النيل العذبة ،
ويتلغ ما يحمل إليه هذا النهر « نيل مبارك الغدوات ، ميمون
الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كيجرى الشمس
والقمر » فيسكر البحر بالغذاء والنماء ، ويظل أبداً بين مد
وجزر يقبل أقدام مصر ، ويرتد عنها ليعود إليها ، مسحوراً
مفتوناً ، وهذا كله مساعد للوحى والإلهام .

كل هذه المشاهد الخلابة باعثة على الشعر حقيقة بالخيال
خلدت منذ فجر الإنسانية وشباب الدنيا شعراء وكتاباً
وفلاسفة وفنانين كانوا مفخرة التاريخ المصرى وقلادة الثقافة
الإنسانية .

وكل هذه المشاهد كانت جديدة بأن توحى إلى الشاعر
المصرى المعاصر لوحات تخلده بين أقرانه ، فيها اعتزاز
بالقديم يحى النخوة فى الجيل المصرى الجديد ، وفيها جمال

وفتنة تحركان النشوة في النفس والموسيقا في الشعر والفتنة في القول . ولكنها على ذلك كله لم تبعث في شاعرنا محمد حافظ إبراهيم إلا أبياتاً متفرقات انفلتت من لسان الشاعر ، فكأن الطبيعة لم تنقش في ذهن هذا الشاعر ذكرى قوية إلا كما ينقش الإزميل في الماء أو القلم في الصحراء .

مرّت هذه المشاهد عابرة في ذهن شاعرنا فلم تتمكث ولم
تتحرك خياله لأن الرجل لم يتخذ من الهرم درساً أو من النيل
صورة ، فلم يهتم بالأرض والماء والمشيّد من الصخر ، فلذلك
عبقريّة أخرى لم تكتب لحافظ ، وإنما كتب له أن يهتم
بالقوم الذين يعيشون بين ظهرائي النيل والهرم والنخيل ،
فالتفت إلى حاضرهم البائس وعيشهم اليائس ، وقد غمّه
المستقبل فانصرف إلى التفكير بهذه الأمة يريدّها كالغرب
نهوضاً أو كاليابان بعثاً ، فتعمل على وحدة الوادي من منبعه
إلى مصبه ، تحت تاج واحد ، في حرية مطلقة وإخاء جميل
ونشاط في الحياة .

ولكنه كان يعوج إلى البكاء والنواح والتشاؤم حين يجد
بعده ما بين الماضي البعيد والحاضر القريب . بذلك لم يكن

فصل في معرفة
الصفات التي
يجب ان يكون
عليها المريد

له من رحلاته بين شمالى الوادى وجنوبه إلا لوحات يائسة .
فلما استقر فى مصر ، وسكن إلى حدائقها وميادينها ، فمرّ
بالأزبكية والخليج المصرى ، ورأى الماء والشجر يتعانقان ،
ثم وقف على الجسور يشهد النيل والأنوار ترقص على أمواجه
لم يثر فيه ذلك أيّة قافية . حتى ليخيل لقارئ الديوان أن
شاعره عاش فى المقهى أو فى منزل الإمام محمد عبده أو أخلد
إلى بيته أو دار الكتب فلم تكتحل عيناه بمشهد الفلاح يغترف
ماءه من النيل أو منظر الفلاحات يحملن جرارهن على رؤوسهن فى
طول فارع وقامة فاتنة . ولم يخلبه مرأى القوارب على النيل أو مشهد
الأشعة ينعكس عليها نور الشمس أو ضياء القمر فترسم
لوحات من الطبيعة بارعة ، فلم يقل كما قال عمرو بن العاص :
« فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار
المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى الخيايل ورق الأصائل » .
وكأنه لم يسهر ليله على ضوء البدر يرسل نوره على عشرات
المآذن ، وهى كالمسلات المزروعة فى قلب الأحياء ينعكس
عليها الضياء ، وتنبق من خلاياها صيحات الإيمان فى قلب
الليل .

كل ذلك لم يكن لحافظ إليه من سبيل ، كأن الطبيعة
لا تحدّثه ولا يحدّثها ، أو كأنه وهب خياله وشعره للمصريين
يناضل عن عيشهم بلسانه ، ويحارب عن وضعهم السياسى
ببيانه ، فقضى عمره محامياً لامعاً عنهم ، كلما وقعت جريمة
هبّ لاتهم الأجنبى وذبوله ، ووقف للدفاع عن الضعيف
والفقير والبائس . وكلما قام مصرى لعمل الخير أو هبّ شرقى
لتسجيل المآثر فرح حافظ وراح يشيد بالشرق والوطنية والإسلام .
أما هؤلاء الذين كانوا يقعون فى ساحات الموت من بنى قومه
الأفذاذ فكان يبكى لبعدهم عن ميدان الكفاح وقد جالوا
فيه وصالوا ، فيترحم عليهم ويسجل مآثرهم ، ثم ينبرى إلى
نفسه فيجد فى الموت مهدداً لا يبعد أن يقرع الباب وما
هو إلا أن يستجيب للنداء ، فهى سنة الكون ولن تجد من سنة
الكون مهرباً .

كذلك كان حافظ وبهذا التفكير أرسل ديوانه قصيدة بعد
قصيدة على مرّ السنين ، ينشره حيناً فى « المنار » وحيناً فى « المجلة
الجديدة » ، فقام بجمعه صديقه وصفيّه محمد هلال ، واستأذنه
فى نشره ، فأذن له لما بينهما من ودّ قديم ، فعمل الرجل على

شرحه والتعليق عليه حتى أصبح في أجزاء ثلاثة صغار .
 وقامت مطبعة أخرى بإضافة ما فات هذه الطبعة ،
 ولكنها لم توف على الغاية ، ولم تجمع بين دقتي طبعتها كل
 شعر حافظ ، ثم قامت وزارة المعارف بطبعه فكلفت أساتيدها
 بالتعليق عليه ونشره . فجعلته هذه اللجنة على أبواب ، واستقصت
 ما وقعت عليه من شعر حافظ ، ولكن أنى لها أن تستنفد شعره
 وقد أهمله صاحبه ونسيه أصدقاؤه ، وأنى لها أن تبوّب قصائده ؛
 وفي المدائح شكوى ، وفي الرثاء مدائح ، وفي الإخوانيات
 سياسة ، وليس من سبيل إلى الإحسان في ديوانه إلا إذا
 قام به الناشر بترتيب الشعر على السنين . فقد كان حافظ
 في شعره سجلاً للحياة التي عاصرها ، بل هو مدوّن يوميات
 هامة يحسن أن يضعها المحقق على ترتيب ولادتها لتظهر لنا
 كيف عاش الرجل وشعره سنة بعد سنة ؛ وكيف كانت
 الأحداث تكرر على مصر ، وما هي صورتها في شعر المصريين ،
 وكيف كان صداها في دواوينهم ؟ !

وكيفما كان الأمر فإنّ للرجل ديواناً ينيف على خمسة
 آلاف بيت ، أكثره في المدائح والتّهاني وفي السياسات

والمرآثي ، وأقله في الشكوى والوصف والحمريات والغزل والأهاجي ، طبع في خمسمائة صفحة ، وقيلت أحسن قصائده سنة ١٨٩٥ وسنّ الشاعر أربع وعشرون سنة ، ونظمت آخر أبياته سنة ١٩٣٢ قبيل موت الشاعر ، وقد نيف على الستين .

فالديوان يضمّ حوادث مصر خلال ثلاث قرن أو تزيد . فما هي هذه الحوادث التي استلقت نظر الشاعر وسلكت إلى قريحته ، وسالت على قلمه فسجلها شعراً ؟ وكيف وفق الشاعر إلى هذا التسجيل ؟

Δ إن ديوان حافظ إبراهيم يصوّر ثلاث مراحل : أولاها مرحلة السودان ؛ وثانيها مرحلة البطالة ؛ وثالثها مرحلة الوظيفة . أما مرحلة السودان ففيها قلق واشتياق إلى مصر ، وفيها شكوى مريرة ومدائح يرسلها إلى أصحابه لعلهم ينقذونه من ورطته ؛ وهو في هذه المرحلة مدّاح يرفع بمدوحه إلى قمم الشناء ، وهو راثٍ يتنكر للزمان وصروفه ، فيرى الدنيا دار شقاء ، ويجد أن الإنسان خلق للفناء . وأعظم قصائده في هذه الفترة ما كتب به إلى الإمام محمد عبده وما مدح به

محمود سامى البارودى . وهو فى شعره لهذه المرحلة يصور
بؤسه وشقائه وفناء ثيابه وعظيم بلواه .

والمرحلة الثانية تبدأ بعودته إلى مصر سنة ١٩٠١ ، وفيها
يخاطب الخديو عباس الثانى فى قصائد عدّة يرجو بها الخير
لنفسه ولأمته ، ويخاطب عبد الحميد فيصف فرح الشرق
بخليفة الإسلام ، وينظم فى الإنكليز فيرى فيهم دهاء ومضاء ،
ويجد الخير كل الخير فى اتقاء شرهم ، ويأخذ عليهم مهاجمة
العربية الفصحى واتخاذ الإنكليزية مكانها فى المدارس والدوائر .
ويتحدث عن الإمام محمد عبده فيشكر له فضله عليه وعلى
المصريين والمسلمين ؛ وهو فى كل ذلك يهاجم عيوب المصريين
واستخافتهم بقطا حلقهم وشعرائهم وانصرافهم عن تقدير نوابغهم
ويريد منهم أن يقلدوا اليابان . وهو فى هذه الفترة غزير
الشعر ، يمدح سعد زغلول وهوغو والموياحى وإسماعيل صبرى ،
ويشكو كرومر وحادث دنشواى ؛ ويرثى الزعماء والأصدقاء
كمحمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل وتولستوى
ورياض باشا ويهتم بالمشاريع الثقافية والعمرانية كراعى الأطفال
والجامعة المصرية .

والمرحلة الثالثة تبدأ بدخوله دار الكتب المصرية سنة ١٩١٢ وفيها يمدح ويهني ويرثي ويشجع ، ويندد كذلك بعيوب أمته ويتحدث عن الحروب وطغيان الطليان . ويحيي خليل مطران ويمدح شوقي وأصحاب المقتطف ، ويهنيء السلطان حسين وسعد زغلول ، ويمدح فؤاد الأول ، ويرثي الطيارين ، وزيدان ، والسلطان حسين ، وباحثة البادية ، ومحمد فريد ، وإسماعيل صبرى ، وسليمان أباضه ، وسعد زغلول ، وأمين الرافعى ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد المويلحى ؛ ويشجع رعاية الأطفال ونادى الألعاب ، ويسخر من الإنكليز حين مظاهرة السيدات وفى رثاء سعد .

* * *

هذه هى أغراض الديوان لم تخرج عن التهانى للخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء ، والمديح لإخوانه وأصدقائه ، والرثاء للأعلام المشاهير ، والتشجيع للمشاريع ، والشكوى من عيوب أمته ، والتنديد بالإنكليز . وهكذا نرى أنه اهتم بالسياسة الداخلية والاجتماعية ونصب نفسه للحديث عن الشعب المصرى

وخصّ يراعته برفعة الوطن وتنقية أخلاقه ، وبعث مكارمه ،
لم يُعمل في ذلك حاسة السمع أو حاسة البصر والشم - كما
يقولون - فلم يحدثنا عن موسيقا الطبيعة في مصر وعن زهرها
ونورها ، ونيلها وهرمها ، وصحرائها وبستانها ولم يصف لنا من
خلال نفسه إلا الشكوى والبلوى .

ألوان شعره

نشأ حافظ كما نشأ غيره من متوسطى الحال ، ولكنه خاض غمار الحياة فى مختلف الأعمال ، فدخل فى الحمامة والجنديّة وعاشر مختلف الطبقات ، فعرف الشعب والوجهاء والأعيان والوزراء ، ووقف على آلام الناس وآمال الزعماء ، فازداد خبرة بالحياة ومعرفة بالشعب .

وأضاف إلى ذلك قراءة للكتب والدواوين ، ووهبته الطبيعة ذاكرة نادرة فحفظ أطيب الشعر وأحسن النثر منذ صباه ، فاجتمع حوله إخوانه وزملاؤه ، وقدّروا فيه مواهبه ، ورأوا فيه محدثاً وراويّة للشعر القديم ، وناظماً شاعراً يقلّد القدماء ، فأحبوه .

ولما كان فى السودان برزت هذه المواهب فاجتمع حوله الضباط ، والأدباء ، والأساتذة ، فأكبروه كذلك .

ولما اجتمع بالإمام وأصحابه صقل أذهانهم بطيب شعره
وعظيم نوادره فألفوا صحبته وظلوا له أوفياء حتى لفظ آخر
أنفاسه .

ونحب أن نستعرض هنا هذه الألوان من شعره على
اختلاف مراحل حياته لعلنا نتبين منها المدارس التي اتبعها
والمذاهب التي سار عليها .

قال شعراً وهو في السودان طبعه بطابع القدماء ، وحنّ
فيه إلى الشكوى والأنين ، ولكنه لا يحرك عاطفة ولا يستلفت
سمعاً ، فنظم سنة ١٨٩٥ شعراً منه :

يا لقوى إننى رجلٌ حرت في أمرى وفي زمنى
أجفأً أشتكى وشقاً إن هذا منتهى الحزنِ
وفي سنة ١٨٩٦ أنشد راثياً فقال في مبالغة لبثت تلازمه :

أمست تنافس فيك الشهب من شرف

أرضٌ توأريت فيها يا قتي الجودِ
لولم تكن سبقتك الأنبياء لها قلنا بأنك فيها خيرٌ ملحودِ
وقال كذلك سنة ١٨٩٧ يرثى ، وهو يعمد إلى المبالغة :

رحم الله منه شهماً وفيّاً كان ملء العيون في كل نادى

ألم الله فيك صبراً جميلاً كلُّ من بات ناطقاً بالضادِ
وقال في سنة ١٨٩٩ يصف الإمام محمد عبده ، فيرى
فيه عمر وعلياً :

رأيتك والأبصارُ حولك خشعُ
فقلت : (أبو حفص) ببريك أم (على)

ويقول سنة ١٩٠٠ في محمود سامي البارودي :
سلبت بحار الأرض درّ كنوزها فأمتت بحار الشعر للدّمورد
ويقول في سنة ١٩٠١ يخاطب الخديو عباس الثاني ويصف
شعره :

معان وألفاظٌ كما شاء (أحمد)

طوتُ جَزَل (بشّار) ورقّة (مهيار)

إذا نظرت فيها العيون حسبتُنها

لحسن انسجام القول كالجدول الجارى

هذه بعض أقواله وهو في السودان ، وقد جاوز الخامسة
والعشرين من عمره ، طبعها بطابع القدماء فيها تهويل وفيها
مبالغة وتشابيه ضخمة لا براعة تشع منها ولا اختراع ، فهي
تفتتح غالباً بالغزل المصطنع وتنتهى بمدح أو رثاء ، وتختتم

في عواطف باردة لا تقع من الشعر العالى العالمى بمكان .

ولكن حافظاً عاد بعد السودان إلى القاهرة فسمع في مجالس الإمام شعراً وثيراً ولغة وأدباً ، ووطنية واجتماعاً ، فأحس بما يحس الشعب به ، ونظر إلى مصر نظرة الإمام إليها ، فانصرف ذهنه إلى قضايا الأمة ، وسبح خياله في حب مصر والدفاع عنها والتشهير بأعدائها والسخرية من جلاّديها . وهنا يصحّ أن يُدرج حافظ في سلك الشعراء المعاصرين وأن يكون من رجال القرن العشرين ، ولولا ذلك لعدا عليه الزمن ، ومحت الأيام سطوره ، ووقع في شعراء القرن التاسع أو العاشر الهجريين .

فلنسمعه يمدح الخديوى عباس الثانى ويهنئه سنة ١٩٠٨

فيقول له :

أمانيك الكبرى وهمك أن ترى بأرجاء وادى النيل شعباً منعماً
وأن تبني المجد الذى مال ركنه وأن ترهف السيف الذى قد تثلاً

ويخاطب السلطان حسين كامل سنة ١٩١٥ فيذكره

كذلك بمحبة الشعب والعمل لخدمته ، وبغيره لا يدوم تاج
ولا عرش فيقول :

فعرشٌ لا تحفُّ به قلوبٌ تحفُّ به الخطوب ويضمحلُّ

وهكذا ظل يطرق أبواب السياسة والاجتماعيات ، وليس

له في المديح كبير مخنأ ، فالمديح فيما نرى لا يتصل بروحه ،

فهو شاعر ناغم ساخر ، وإنما أكبر همه أن يرمى الإنكليز

بآيات بارعات هن مصحف شعره ، وهو فيه صاحب أسلوب

فذ لا تقع عليه في دواوين معاصريه ، بل لا تقع عليه في

شعرنا العربي القديم كله ، فهو به شاعر الجليل ، وشاعر الشعب

المصرى والأمة العربية الحديثة ، لم يقلد فيه غيره من القدماء

أو المحدثين ، ولم نجد من يقلده فيه ، فلم يسبقه إليه سابق

ولم يلحق به لاحق . *دعنا نذكر أن اللورد كرومر في سنة ١٩٠٥م*

وأقوى شعره في الإنكليز ما كان من أثر حادثة دنشواي

فقد قال يصف عمل الإنكليز :

ليت شعري أتلک محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عادا

كيف يحلو من القوى الشفی من ضعيف ألقى إليه القيادا

ويخاطب العميد اللورد كرومر ، فيصف حادثة دنشواي

ويقول :

خَلَّيْتَهُمْ والقاسطون بمرصد وسيأطهم وحبأهم تتأهب

جُلِّدُوا وَلَوْ مَنِيَّتَهُمْ لَتَعَلَّقُوا بحبال من شُنِقُوا ولم يتهَيَّبُوا
 شُنِقُوا وَلَوْ مُنَحُوا الْخِيَارَ لِأَهْلُوا بلطى سياط الجالدين ورحبوا
 يتحاسدون على الممات، وكأسه بين الشفاه، وطعمه لا يعذبُ

ويسخر من عهد اللورد كرومر فيقول :

فليت « كرومرأ » قد دام فينا يطوق بالسلاسل كل جيد
 ويتحف (مصر) أنا بعد آن بمجلود ومقتول شهيد

ويرى الإنكليز يُعنون بالقطن واستغلاله فيقول لهم :

عملتم على عز الجهاد وذلنا فأغليتم طيناً أرخصتم دما
 إذا أخصبت أرض وأجذب أهلها فلا أطلعت نبياً ولا جادها السما

ويودع اللورد كرومر فيرى من الخير أن يذكر محاسنه

ومحاسن الإنكليز وجهدهم في بعث الشقاء بين الشعب وزرع
 الشركات الأجنبية لامتنعاص دمه فيقول له :

أشرت برأى في كتابك لم يكن سديداً ولكن كان سهماً مسدداً
 وحاولت إعطاء الغريب مكانة تجر علينا الويل والذل سرمداً
 فيا ويل (مصر) يوم تشقى بندوة يبيت بهاذك الغريب مسوداً
 ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا على حين لم نبغ من الفطنة الممدى
 وزاحمنا في العيش كل ممارس خمير وكنا جاهلين ورقداً

وما الشركات السود في كل بلدة
سوى شرك يلقى به من تصيّدًا
ويصف الاستعمار الإنكليزي وموقفه من الشورى ورجال
الأمة فيقول :

وفي الشورى بنا داء عهيدٌ
شيوخ كلما همّت بأمر
لحى بيضاء يوم الرأى هانت
إلى أن يقول :

أرى أحداثكم ملكوا علينا
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعاً
أكلٌ موظف منكم قديرٌ
على التشريع في ظل العميد !

ويرسم لبنى قومه سياسة الإنكليز ويوازن بينهم وبين المصريين
ويحذّر من خداعهم وأباطيلهم فيقول :

فما سادوا بمعجزة علينا
فلا تثقوا بوعد القوم يوماً
ولكن في صفوفهم انضمامٌ
فإنّ سحاب ساستهم جهامٌ
وخافوهم إذا لانوا فإني
أرى السواس ليس لهم ذمامٌ
فكم ضحك العميد على لحانا
وعزّ سراتنا منه ابتسامٌ

ويضيق بالإنكليز الذين ملأوا رحاب مصر فيقول فيهم :

صبوا البلاء على العباد فنصفهم يحبي البلاد ونصفهم حكام

ويقول في قصيدة أخرى :

وبنو مصر في حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاماً فعاماً

أيها النيل كيف نمسى عطاشاً في بلاد رويت فيها الأناما

يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما

إن لين الطباع أورثنا الذل وأغرى بنا الحفاة الطغاما

ولا يرى في دواء لهذا الداء إلا الضحية والفداء فيهددهم

ويفهم القوم أن مصر قررت أن تموت في الذود عن حماها

فيقول مخاطباً سعد زغلول :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفي البلاد دخيل

عزل ولكن في الجهاد ضراغم لا الجيش يفزعها ولا الأسطول

ويقول كذلك :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا ستموت أو نحيا ونحن كرام

هذا هو موقف حافظ من المستعمرين يصف استهتارهم

بأمتهم ، وعدوانهم على كرامتها وحقوقها ، فكأنه يبكي لحظ مصر

وقد وقعت في قبضتهم ، لذلك حق له أن يبكي الجنود المدافعين

عن حماها ، وأن يرثي هؤلاء الزعماء الذين يقودون الأمة في

معركة الحرّية ويسقطون في الميدان قبل الوصول إلى الغاية
وتحقيق الاستقلال .

رثى محمود سامى البارودى 'وقد قام بدوره فى زعامة الجيش
وقيادة الثورة ، بلسانه وسنانه فقال فيه :

كم وقفة لك والأبطال طائفة
والحرب تضرب صنديداً بصنديد

تقول للنفس إن جاشت إليك بها
هذا مجالك سودى فيه أو بيدي

نسخت يوم (كريد) كل ما نقلوا
فى يوم (ذى قار) عن (هانى بن مسعود)

نظمت أعداك فى سلك الفناء به
على روى ولكن غير معهود

كانهم كلم والموت قافية
يرمى به عربى غير رعديد

ورثى الإمام محمد عبده وقد جاهد كذلك فى حلقات العلم
واللغة والفضيلة فانطوت بموته صفحة فخار للأزهر والمسلمين

فقال : يا منى يا منى

وشاعت تعاوى الشهب باللمح بينها
 عن النيّر الهاوى إلى الفلوات
 مشى نعهه يختال عجباً بر به
 ويخطر بين اللمس والقبلات
 تكاد الدّموعُ الجاريات تقله
 وتدفعه الأنفاس مستعرات
 بكى الشرق فارتجّت له الأرض رجة
 وضائق عيون الكون بالعبرات
 ففى الهند محزون وفى الصين جازع
 وفى مصر باك دائم الحسرات
 وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب
 وفى تونس ما شئت من زفرات
 بكى عالم الإسلام عالم عصره
 سراج الدياجى هادم الشبهات
 ولما خرّ الشهاب الثالث مصطفى كامل بطل الوطنية والصراع
 القومى رثاه الشاعر وبكى فيه بانى صرح المجد وخطيب مصر
 المفوّه ورجلها الجرىء فقال :

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا يرن كما قد كان بالأمس داويا
 يهيب بنا هذا بناءً أقمته فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
 يناشدنا بالله ألا تفرقوا وكونوا رجالاً لا تسروا الأعادي
 ثم يرثيه في قصيدة أخرى فيفتقد فيه المدافع المناضل
 الذى كان يزود عن الكنانة ضد كرومر وأضرابه :

أين الخطيبُ وأين خلّابُ النّهى طال انتظار السمع والأبصارِ
 بالله مالك لا تجيب منادياً ماذا أصابك يا أبا المغوارِ
 قم وامحُ ما خطت يمين (كرومر) جهلاً بدين الواحد القهارِ
 قد كنت تغضب للكنانة كلها همت وهم رجأوها بعثارِ

.....

.....

جزع الهلال عليك يوم تركته ما بين حرّ أسى وحرّ أوارِ
 متلفتاً متحيراً متخيراً رجلاً يناضل عنه يوم فخارِ
 إنّ الثلاثين التى بك فاخرت باتت تقاسُ بأطول الأعمارِ

وفى سنة ١٩٠٩ أنشد فى ذكرى وفاة مصطفى كامل

مرثية أخرى بين فيها الظلم الذى تكتوى مصر بناره فقال :
 قيل اسكتوا فسكرنا ثم أنطقنا عسف الجناة وأعلى صوتنا الألم
 قد اتهمنا ولما نطلب جلالاً إن الضعيف على الحالين متهم

قالوا: لقد ظلموا بالحق أنفسهم! والله يعلم أن الظالمين هم
 إذا سكتنا تناجوا: تلك عادتهم وإن نطقنا نادوا: فتنة عجم
 وانتقل سعد زغلول فمشت مصر في جنازته وتقطعت عليه
 القلوب حسرات فرثاه الشاعر في سنة ١٩٢٧ :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمت عنا الذهابا
 كيف ننسى مواقفك لنا كنت فيها المهيب لا الهيبا
 كنت في معية الشباب حساماً زاد صقلا فرنده حين شابا
 ولم يكتف حافظ برثاء رجال الوطنية والعاملين في حقل
 النضال وإنما بكى رجال الأقلام فهم في الصفوف الأولى من
 خطوط القتال ، قال يرثي محمد المويلحي سنة ١٩٣٠ :

مؤثر البؤس والشقاء على الشكوى وإن عضك الزمان بنباب
 كنت تخلو بالنفس والنفس نشوى من كنوس الهموم والأوصاب
 فتسرى بالذكر عنها وتنفي ما عراها من غصة وكتاب
 ولن نستطيع في هذه الصفحات القليلة بيان ما لحافظ
 في الرثاء ، ولن نتمكن من تعداد مراثيه وألوانها فذلك يطول ،
 ولكننا أردنا أن ندل على وطنية حافظ وحبه لمصر وتعلقه
 برجالها ومقاومته لرجال الاحتلال فبسطنا نماذج من شعره

ليست خير ما قال وإنما اخترناها لنضرب الأمثلة على أن
حافظاً كان شاعر أمته وشاعر شعبه خصّ بهما أكثر قصيده
ووقف عليهما كل نبوغه .

وقد جاوز الشاعر في ديوانه حدود الإقليم ، وحلّق خياله
وراء مصر ، وتناول في موضوعاته الشرق والغرب فطرق أبواباً
من القول تضع شعره في مصاف الشعراء العالميين ، وترفع من
قدر أدبنا الحديث إلى حيث يجب أن يرتفع ، فاستحق عاطر
الذكر وعظيم الثناء .

نبض قلبه لكل كارثة في العالم فشارك الأمم في مصائبها
وقاسمها أحزانها ، ووقع في ذلك على التوفيق وحالفه في ذلك
النصر . قال يصف زلزال مسينا وقد حدث سنة ١٩٠٨ ،
ويرسم ما كان من نكباته :

بغت الأرض والجبال عليها	وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقدّاً عليها فتش	ق انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً	بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار رداً عليها	جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جون	وهنا الموت أحمر اللون قاني

جند الماء والثرى لهلاك ال
ودعا السحب عاتباً فأمدّت ه
خلق ثم استعان بالنيران
بجيش من الصواعق ثانی

.....

رُبّ طفل قد ساخ في باطن الأر
ض ينادى : أمى أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجم
ر تعاني من حرّه ما تعاني
واب ذاهل إلى النار يمشى
مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه
مسرّع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج
من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصّت الأرض أتخم البحر مما
طوياه من هذه الأبدان
وشكا الحوت للنسور شكاة
ردّتها النسور للحيتان

أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً

ثم باتا من كظة يشكوان
وما أحسب أن في الطليان من وفق إلى رسم الزلزال وأثره
في السكان كما وفق حافظ في قصيدته هذه ، فقد وصف
الأرض والجبال والبحر والمياه ، وصوّر المعركة التي قامت
بين عناصر الطبيعة تغلى بالحق وتثور بالموجدة ، فتررع
الموت في كل مكان ، ولا ينجو منها فتى أو فتاة ، ولا يجنبها
أب أو أم ، وإنما يلوذ جميعهم بالفوضى الناشئة ، ويتعلقون
بجبال اليأس بين النار والماء .

ونخير للأدب الإيطالي الحديث أن يترجم هذه اللوحة
البارعة إلى صفحاته فيجعل منها في المتاحف الأدبية صورة
للشعر المصرى الحديث . وحين يتساءل المرء عمّا دفع حافظاً
الشاعر العربى إلى المشاركة بالمصائب ، ووصف ألوان العذاب
يحييه حافظ : « ذاك حق الإنسان عند بنى الإنسان » .

ووصف حافظ سفينة أقلته إلى إيطاليا في نوفمبر ١٩٢٣ ،

فرسم ما يعرض للمسافر في عرض البحر قال :

عاصف يرتنى وبحر يُغير أنا بالله منهما أستجير

وكانّ الأمواج - وهي توالى
 أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت
 ثم أوفت مثل الجبال على الفدا
 تترامى بجؤجؤ لا يبالي
 أزعج البحر جانبيها من الشدّ
 وهو أناّ ينحطّ من علو كالسيه
 وهي تزورّ كالجواد إذا ما
 وعليها نفوسنا خائرات
 في ثنايا الأمواج والزبد المذ
 مرّ يوم وبعض يوم علينا
 ووصف حافظ الشرب والكاس فأبدع فيهما وسارت
 قصيدته في الناس قال :

يا غلامُ المدام والكأس والطا
 س - وهيء لنا مكاناً كأس -
 أطلق الشمس من غياهب هذا الد
 ن - واملأ من ذلك النور كأسى

وأذن الصبح أن يلوح لعيني
 من سناها فذاك وقت التحسّي
 وادع ندمان خلوتي وائتناسي
 وتعجلّ واسبل ستور الدمقسِ
 واسقنا يا غلام حتى ترانا
 لا نطيق الكلام إلا بهمسِ
 ووقعت الحرب بين الروس واليابان فوصفها حافظ كما
 وصف الزلزال من قبل ، فهي كارثة كذلك ، وهي أعملت
 منجل عزرائيل في حصاد النفوس قال :
 أضحي رسول الموت ما بينها حيران لا يدري بما يؤمرُ
 عزريل هل أبصرت فيما مضى وأنت ذاك الكيس الأمهرُ
 كذلك المدفع في بطشه إذا تعالى صوته المنكرُ
 تراه إن أوفى على مهجة لا الدرع يثنيه ولا المغفرُ
 وشاعرنا يحبّ اليابان ويؤثرها في أخلاقها على أمم الشرق
 كله ، فما يتصدى لحربها ونضالها وانتصارها وبطولتها حتى ينقلب
 إلى قومه فينعي عليهم تخاذلهم واختلافهم فيقول في وصف أمته :
 أمة قد فتّ في ساعدها بغضها الأهل وحبّ الغربا

تعشق الألقاب في غير العلا وتفدّي بالنفوس الرتبا
وهي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها أم بها صرف الليالي لعبا
وتتحرر الأمة العثمانية من كابوس ثقل ، وينشق فيها
الدستور فيعرض حافظ لذلك ، ويتخلص منه إلى نصيح
قومه وإرشادهم ودعوتهم إلى الاتحاد والائتلاف فيقول واصفا
حالمهم :

سرى داء التواكل فيه حتى تخطّف رزقه ذاك الزحام
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجذام
هلاك الفرد منشؤه توان وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنّا قد ونيّا وانقسمنا فلا سعى هناك ولا وئام
فساء مقامنا في أرض مصر وطاب لغيرنا فيها المقام
فلا عجب إذا ملكت علينا مذاهبنا وأكثرنا نيام

ويخيّل إلينا أن الشاعر يصطاد المناسبات ليعظ قومه
ويصف ما هم عليه من تفكك اجتماعي أثاره الاحتلال وعزّه
الفقر ونصره الجهل فقال يصف قومه :

هذا يطير مع الخيا ل وذاك يرتجل النوادر

ما هدّ عزم القادريين بمصر إلا قول (باكر) وكأننا بالشاعر وقد نشأ في مدرسة الإمام محمد عبده قد اتخذ لنفسه صفة **المصلح الاجتماعي**، والناصح المرشد، يهب في كل آن إلى الإصلاح والدعوة إلى الدين، والقيام بتطهير الشعب من أمراضه وآفاته، ومداداته من شقائه وآلامه، بل لعله يحسّ أنها رسالة أودعها الإمام في عنقه يؤديها كلما حزب الأمر ودعا إلى الإصلاح داع.

فهو لا يني ولا يقف عن المناداة بالرحمة والإشفاق والدعوة إلى الزكاة والإكرام، وإغاثة الضعيف ونصرة الملهوف.

فلما حدث حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢ نادى بالأغنياء

قائلاً :

أيها الرافلون في حلال الوشى يجرّون للذيول افتخاراً
إنّ فوق العراء قوماً جيعاً يتوارون ذلة وانكساراً

وحين حدث خلاف بين الشيخ علي يوسف والسيد أحمد عبد الخالق السادات حول زواج الشيخ، كتب حافظ قصيدة عرض فيها كذلك لأخلاق الشعب ونادى بالإصلاح على عادته فقال :

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها (أبو الطيب)
أمور تُمَرُّ وعيش يُمِرُّ ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجر
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب في وده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وكأنه لا يشفى غليله بهذا النقد وهذا التجريح فيلج على
الأمراض ^{الاجتماعية} ويعرض لها في أكثر شعره حتى لنظن أنه معرّى
عصره ، يتناول أفراد الأمة بالنقد في القرن الرابع عشر كما
تناول المعرّى عصره في القرن الخامس ، فلا يكاد يخلو من نقده
رجل صناعة أو علم إلا وصفه ونال منه . قال يصف العلماء
المزيفين لعصره :

كم عالم مدّ العلوم حبائلاً لوقيعة وقطيعه وفراق
وفقيه قوم ظل يُرصدُ فقهه لمكيدة أو مستحلّ طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تلّ تفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذي يدعون خدن شقاق

ما لا تحلّ شريعة الخلاقِ
 جمع الدوانق من دم مهراقِ
 يوم الفخار تجارب الخلاقِ
 مفتاح رزق العامل المطراقِ
 بالماء طوع الأصفر البراقِ
 في السلب حدّ الخائن السراقِ
 قطع الأنامل أو لظى الإحراقِ
 فكأنه في السحر رقية راقِ
 سمّاً وينقثه على الأوراقِ
 قدسيّة علويّة الإشراقِ
 من ظلمة التمويه ألف نطاقِ

وطبيب قوم قد أحلّ لطفه
 قتل الأجنة في البطون وتارة
 أغلى وأثمن من تجارب علمه
 ومهندس للنيل بات بكفه
 تندى وتيبس للخلائق كفه
 لا شيء يلوى من هواه فحده
 وأديب قوم تستحق يمينه
 يلهو ويلعب بالعقول بيانه
 في كفه قلم يمجّ لعبه
 يرد الحقائق وهي بيض نصّع
 فيردّها سوداً على جنباتها

ولا يكتفى الشاعر بوصف الأمراض والعلل وإنما يشارك
 في وصف الأدوية والعلاجات ، فينادى مع المتنادين في عون
 الفقير ومساعدة العميان وتعليم الطفل ، قال يدعو إلى الخير :
 أنقذوا الطفل إن في شقوة الطفء
 إن يعيش بائساً ولم يطوه البؤ
 رب بؤس يخبث النفس حتى
 ل شقاء لنا على كل حال
 س يعيش نكبة على الأجيال
 يطرح المرء في مهاوى الضلال

أنقذوه فرما كان فيه مصلح أو مغامر لا يبالي
ربما كان تحت طمره عزم ذو مضاء يدك شمّ الجبال
رب سرّ قد حلّ جسم صغير وتأبى على شديد المحال
وذلك لأن حافظاً ذاق ألم اليتيم والبؤس والفقر ، فعرف
ما تفعل هذه جميعاً في الأطفال ، فالتفت إلى أمته وأهاب بها
أن تعنى بهذه الآفات فتجنب الشعب ويلات وويلات .

وإذا كان الشاعر قد أحبّ الأرض وعمل للذود عن
حياضها ضد المستعمر ، وأحبّ الشعب وسعى إلى تعليمه
ونصحه ومداواة أمراضه ، فهو قد أحبّ اللغة العربية حباً
جماً لا يعادله حب ، فلمّا قرّر المستعمرون أن يضعفوها وأن
يضعوا الإنكليزية في المدارس وفي المؤسسات والدوائر غضب
وثار ، وامتدح اللغة الفصحى لغة القرآن الحيد ، ونال من اللغة
الإنكليزية ونعتها بالضعف والخور ، قال في سنة ١٩٠٣ على
لسان العربية يخاطب أمته :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله في بطن الجزيرة أعظم يعزّ عليها أن تلين قناتي

حفظن ودادى فى البلى وحفظته
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق
لمن بقلب دائم الحسرات
حياء بتلك الأعظم النخرات

.....

أيهجرنى قومي عفا الله عنهم
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
إلى لغة لم تتصل برواة
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفات
وهو لا يفضل اللغة العربية على الإنكليزية فحسب ،

وإنما يفضل الشعر العربى على الشعر الغربى فيقول :

سل (ألفريد) و (لامارتين) هل جريا

مع الوليد أو الطائي بميدان
وهل هما فى سماء الشعر قد بلغا

شأن النواسى فى صوغ وإتقان ! ..

هذا هو الحامى الذى انبرى طيلة عمره للدفاع عن أمته
وقومه ضد المستعمر ، ونقد أخلاق الشعب وهو يحب له الخير
ويتمنى له الاستقلال والعزة والكرامة والصحة والغنى ، فهو
شاعر الشعب وهو مصدر من مصادر تاريخه القومى . وهو
على ذلك إنسان يتسامى بشعره الإنسانى فيصف ما يصيب

الأمم من كوارث وأحداث سواء فيها الشرقية أم الغربية .
 وحين يستعرض القارئ ديوانه فيقع على وصف بركان
 المارتينيك وثورته ، وزلزال مسينا ونكبته ، وحرب اليابان وضحاياها ،
 وسلطان مراکش ومجونه ، وحوادث العثمانيين وعبتهم ، يجد أن
 الشاعر عاش على قمة الإنسانية يعطف على البؤساء والمنكوبين ،
 ويرقّ للعجائز والبائسين ، ثم ينظر إلى قومه فإذا هم في الأصفاد
 والقيود ، فيغضب ويثور .

وأما هؤلاء المصريون الذين ماتوا ، فهم نذر بفقد الرجال
 العاملين في حقل الحرية والنضال ، يعدّهم حافظ ، وينظر
 إليهم يتوارون وكأنهم قطعة من بلاده المقدسة تغيب تحت
 الماء أو تنهار تحت الزلزال أو تنصهر بنار البركان ، وكأنّ
 في بقائهم بالميدان ضماناً للسور الذي يحيط بالوطن ، ينهار
 بانهارهم ويتضعضع بزوالهم .

وإذا استعرضنا هؤلاء الذين بكاهم عرفنا المجتمع الذي
 عاش فيه والأفراد الذين أحبهم وفقدهم وهم أعلام مصر
 ومشاهيرها قرنوا إلى اسمه مع الزمن ، فأصبح هو كذلك من
 الأعلام الذين يذكرون إذا ذكر القرن العشرون وذكر الأدب
 المصرى الحديث ؛ رفعه شعره إلى مصافّهم ولولاه لعاش منسياً
 مغموراً في الملايين التي تضمها الصحراء وترويهما السماء .

موقعه من الشعراء القدامى والمحدثين

قرأ حافظ إبراهيم دواوين القدماء وحفظ أكثر شعرهم وسعى إلى تقليدهم ، وعاش وهو يؤمل أن يبذلهم ، وأن يفوق في ألفاظه ومعانيه جزالة بشار ورقة مهيار وألفاظ المتنبي وأسلوب حسان وأغراض أبي نواس .

قال منذ سنة ١٩٠١ يصف شعره :

معان وألفاظ كما شاء (أحمد)

طوت جزل (بشار) ورقة (مهيار)

وقال في خطاب الخديو عباس الثاني سنة ١٩٠٤ :

واليوم أشدهم شعراً يعيد لهم

عهد (النواصي) أو أيام (حسان)

وظل شعره في حلبة الأسلوب والصياغة على سباق مع

الأقدمين حتى كاد يقع شعره من هذا الباب في الشعر العباسي .

وما نظن أنه يختلف عن شعراء العباسيين في الجزالة والمتانة .
ونحسب أن الزمان قد انقطع بينه وبينهم فوصلته القوافي
والأساليب فهو تنمة الشعراء العباسيين وخاتمهم .

ولقد وضعه الدكتور طه حسين مع شوقي في أشعر العرب
بعد المتنبي وأبي العلاء فقال : « هما أشعر أهل الشرق العربي
منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك » .
وقال فيه خليل مطران :

« يتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج
مثال جميل من حجره ؛ يؤثر الجزالة على الرقة . . . له غرام
باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وفي أقصى ضميره يؤثر
البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً
في التصور لم يفته الابتكار في التصوير » .

وقد كان حافظ يعجب بالبارودي و خليل مطران وإسماعيل
صبرى ، ويمدحهم في شعره ، ويجعلهم طلائع النهضة في
زمانه . وقد كان يرى للبارودي فضل التقدم ، فقد جدد الشعر
ونقاه من التكلف قبل أن يقول حافظ شعراً ، ولكنه لم
يكن للشعب كما كان حافظ ، فلم يطرق الأبواب التي طرق ،

لذلك نرى في شعره جسراً عبر عليه شاعرنا إلى الشعر الحديث
المصقول الفنى .

وكان الشعراء المعاصرون يكيلون لحافظ المديح ويمجدون
المتانة والجزالة في تراكيبه وأسلوبه ، وسنعرض هنا لبعض أقوالهم
فيه لعلنا نعرف موطن التقدير والإكبار .

قال البارودى فى شعر حافظ :

لبق بتصرف الكلام يسوقه ما شاء بين سهولة وعزاز
فيذا تغزل فالنفوس نوازع وإذا تحمّس فالقلوب نوازى

.....

حاك القريض بلهجة عربية أغنت عن الإسهاب بالإيجاز
ألفاظها نمت على ما تحتها وصدورها دلت على الأعجاز
وقال فيه أحمد شوقى :

ما زلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء
جددت أسلوب (الوليد) ولفظه وأتيت للدينيا بسحر (الطائي)
وقال فيه خليل مطران :

شاعر لم يبادره أحد فى الـ أخذ بالمستحب والمستجد
يحكم الصوغ فى القلاد فما يأ فى صناع بمثلها فى القلاد

.....
 في تراكيبه وفي مفردات اللفظ حارت نفاسة الحسّاد
 فالشعراء المعاصرون كانوا يرون أنه يحكم الصياغة والأسلوب
 والألفاظ والمفردات . وهو نفسه يعترف لنا بحبه للقدمات وسعيه
 في تقليدهم وسبقهم ، وأنه كان يقلّب اللزوميات فيستفيد منه
 حين يتبرم بالحياة ويضيق بالعيش فيقول في « ليالى سطيح » :
 « فقمّتُ إلى ربيع الأرواح ومسرّح النفوس - وأعنى به
 اللزوميات ، فطويتُ بفتحته كتب الأوهام ، ومحوْتُ بسطوره
 سطور الآلام » .

لذلك نرى في شعره ما في دواوين المتنبي والبحتري وابن
 الرومي وأبي تمام والمعري من ألفاظ ومعانٍ وسخرية لازعة ،
 وقد أعلن أكثر من مرة أنه سار على طريقة مثلى في الشعر
 فقال :

ولمّا أصِفْ كأسأولم أبك منزلا
 وقال في وصف غزله :

هوينا فما هنا كما هان غيرنا
 وما حكمت أشواقنا في نفوسنا
 ولكننا زدنا مع الحب سؤدا
 بأيسر من حكم السماحة والندی

وقال في قصيدته إلى الخديو ميعاس الثاني :

أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان
من الأوانس حلاها يراع فتى صافي القريحة صاح غير نشوان
ماضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته في موطن بجلال الملك ريان
وقال كذلك يخاطب الشعر القديم ويبين عن طريقته

في النظم :

ضعت بين النهى وبين الخيال يا حكيم النفوس يا بن المعالي
ضعت في الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمة مكسان
قد أذالوك بين أنس وكأس وغرام بظبية أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء ورثاء وفتنة وضلال
وحماس أراه في غير شيء وصغار يجرّ ذيل اختيال
عشت ما بينهم مذالاً مضاعاً وكذا كنت في العصور الخوالى
حملوك العناء من حب ليلي وسليمى ووقفه الأطلال
وبكاء على عزيز تولّى ورسوم راحت بهنّ الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوماً أسكنوك الرحال فوق الجمال
آن يا شعر أن نفك قيودا قيدتنا بها دُعاة المحال

فأرفعوا هذه الكنائس عنا ودعونا نشم ريح الشمال
وحافظ بهذه القصيدة عرّف طريقته في الشعر كما عرّفها
قبله بعشرة قرون أبو فراس الحمداني حين قال :

لم أعد فيه مفاخرى ومديح آبائي النجب
لا في المديح ولا الهجاء ولا المجون ولا اللعب
وانتقد الوقوف على الديار وبكاء الأحياء كما فعل أبو نواس

قبله بأثنى عشر قرناً حيث قال :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ماض لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به مثل سلمى ولُبَيْسَى وخنس
اترك الربع وسلمى جانباً واصطبج كرخيئةً مثل القبس

ولكنه على كل حال عرّف الشعر الذي نظمه ، وبين
لنا الأبواب التي طرقها ونرى أنه كان وفيّاً صادقاً مخلصاً في
ذلك كله ، فهو لم يتغزل ولم يهج ولم يقل في الحماسة والفخر .
ولكنه مدح فسقط على كثير من البسيط الغث ، ورثى فبكى
وأبكى ، وكان رثاؤه كما يقول نصف ديوانه . وأعظم ما في
هذا الديوان وصفه آلام الدهماء من الشعب ، وتصويره وطنية
الأمة لذلك العهد وموقفه من المستعمر والسلطان والخليفة ،

ووصفه حالة الكنانة في جهلها وفقرها وتفرقها وذلها وأمراضها ،
 فكأنه كان مؤرخاً لحالها كما قال هو نفسه في تعريف شعره :
 ولكنني في معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولاً مغلّداً
 فديوانه تاريخ أمته نظمته شعراً ، يقرؤه المصريون فيجدون
 فيه سجلاً لنصف قرن من حياة مصر ، غامت السحب
 خلاله ، واحلوك وجه السماء . فلعلّ الأيام تحقق آمال
 الشاعر وتردّ إلى مصر عزّها القديم ومجدها الخالد فترتع في
 النعيم وتسبح في السرور ، وتمتلك من جديد ناصية الخلود .

حافظ وشوقي

عرفنا آراء الشعراء المعاصرين والكتاب الناقدين في حافظ
وفي شعره ، وعرفنا أنهم كانوا يحفظون له في قلوبهم أطيّب
الود وأعظم الحب . وكان حافظ يبادلهم ودّاً بود وتحية بتحية ،
ويحذر بنا بعد أن استعرضنا آراء الشعراء فيه أن نستعرض رأيه
فيهم واحداً بعد واحد . قال في محمود سامي البارودي يمدحه
سنة ١٩٠٠ :

أمير القوافي إن لي مستهامة
بمدح ومن لي فيك أن أبلغ المدى
وقال في إسماعيل صبري :

(صبري) استشرت دفائني وهزرتني
وأريتني الإبداع كيف يُنسَقُ
فأبجت لي شكوى الهوى وسبقتي
في مدح (عباس) ومثلك يسبق
وقال في خليل مطران :

فمضى النثر خاضعاً ومشى الشعراء وألقى إلى (الخليل) الزماما
ومدح الكتاب المعاصرين كمحمد المويلحي ومحمد عبده
وأصحاب المقتطف ودار المعارف والضياء والهلal والجامعة .

ولكنه كان يقف من شوقي موقفاً غريباً ، فهو يعلن في
شعره كله منذ سنة ١٩٠١ حتى وفاته أن شوقي أمير الشعراء
وأنه وحده الخالد . ولعله أول الأمر كان يجعل أحمد شوقي
وسيلة إلى إرضاء القصر ، ولكنه وقد اشتهر بلقب أمير الشعراء
وشاعر الأمراء لم يستطع أن يتراجع عن مدحه ، بل كان
يغتيم الفرص والمناسبات ليعلن في شعره هذا الود والإكبار ،
وقد كان يضرب المثل بشعر شوقي ، فقال في تهنئة عباس الثاني
سنة ١٩٠١ :

إلى سدة (العباس) وجهت مدحتي

بتهنئة (شوقية) النسج معطار

وقال فيه بالسنة نفسها :

لم أحش من أحدي الشعر يسبقني

ذاك الذي حكمت فينا يراعتة

وأكرم الله والعباس مثواه

ثم قال فيه :

لم يبق (أحمد) من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب

ولما هنأ الخديو عباس الثاني سنة ١٩٠٨ قال :

(شوقي) نسبت فاملكتُ مدامعى من أن يسيل بها النسيب الشيقُ

وفي سنة ١٩١٣ قال فيه :

يا سيّدِي وإمامي ويا أديب الزمان

حرمتُ رؤية شوقي ولثم تلك البنان

وفي السنة نفسها قال في شوقي وصبري وهو يهنئ المطران :

وتلونا آيات شوقي وصبري فرأينا ما يهر الأفهاما

ملا الشرق حكمة وأقاما في ثنايا النفوس أنسى أقاما

غنيا المشرقين ما ترك الأفلا كـ حيرى وأذهل الأجراما

وأعادا عهد الرشيد لعبا س فكانا يراعه والحساما

ولما سافر شوقي إلى مؤتمر المستشرقين ودعه بقصيدة لقيه

فيها بشاعر الشرق فقال :

يا شاعر الشرق اتد ماذا تحاول بعد ذاك

هذى النجوم نظمتها درر القريض وما كفاك

وفي سنة ١٩١٩ عاد شوقي من منفاه فحيّاه حافظ بقوله :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه إن لم يكن قد جاء بعد أوانه
فأتى بما لم يأت به متقدماً أو تطمع الأذهان في إتيانه
وفي سنة ١٩٢٧ نظم قصيدة يهنئه بها في حفلة تكريمه
بالأوبرا قال فيها :

لئن عجبوا أن شاب شوقى ولم يزل ففى الهوى والقلب جم التواضع
لقد شاب من هول القوافى ووقعها وإتيانه بالمعجز المتمنع
وبعد أن لخص قصائد الشوقيات وحملها قال :
تملكت من ملك القريض فسيحه فلم تبق يا شوقى لنا قيد أصبع
وهكذا ظل حافظ خلال ثلاثين سنة يكيل المديح
لشوقى فى قصائد يخصه بها أو يتطرق إلى ذكره فيها ، لا يقتصد
فى كلامه ولا يبخل فى تقريره . فهل كان هذا حباً حقاً صادراً
من أعماق نفسه ؟ أم كان ذلك خوفاً من مقام شوقى ومكانته
فى القصر وبين الأعيان وعلية القوم ؟ أم كان ذلك نفاقاً
وتقرباً لعله يحظى بمثل ما حظى به أمير الشعراء من غنى ونعيم
وترف !

إن الخلاف كان واقعاً بين الشاعرين وأنصارهما ما فى
ذلك ريب ، وإن الحسد كان شائعاً ذائعاً ما فى ذلك شك .

قال شوقي في رثاء حافظ يلمح إلى ذلك :

ووددتُ لو أنى فداك من الردى

والكاذبون المرجفون فدائي

الناطقون عن الضغينة والهو

والموغرو الموتى على الأحياء

من كل هدام وبينى مجده

بكرائم الانتقاص والأشلاء

ما حطّموك وإنما بك حطّموا

من ذا يحطّم رفرف الجوزاء

والغريب أن حافظاً لم يشر إلى ذلك في شعره ، وإنما

بسط أمره في وضوح وهو يخط كتابه « ليالى سطيح » ، فقد

عرض بصورة عامة أولاً إلى حساده فقال فيهم :

« ينبغ فيها — أى مصر — النابغة فينبعث أشقاها للطعن

عليه فلا يزال يكد له حتى يبلغ منه ؛ ويكتب فيها الكاتب ،

فينبرى له سفيها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ،

ويفسد عليه كتابه ؛ ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهها

فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على سره . »

ثم عرض بصورة خاصة دقيقة لأمر شوقي فبسط الخصومة
بينه وبينه ، فأجرى على لسان صديق حواراً بينه وبين الكاهن
سطيح عن الشوقيات قال سنة ١٩٠٦ :

« فلو بُعث اليوم صاحب اللزوميات وحاول أن ينشر
في تلك الصحف حرفاً مما أخذه على الأمراء وأنكره على الكبراء
لأبت عليه أن تفسح لذلك الحرف مكاناً بين جداول الأموات
فضلاً عن جداول الأحياء . ألم تر إليها كيف كانت تقول يوم
كانت تقرظ الشوقيات وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب
ما تعجز صحف الأستانة عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع
الأعظم ، وقد أدى فريضة الجمعة أو تحركت شفتاه بالإنعام
على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام .

« بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جاء به صاحبها من
المعجزات اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعاني الغريبة
التي ما سكنت في معنى عربيٍّ إلاّ وذهبت بروائه .

« قلتُ : حسبك لا تغضض من شاعر الشرق ولا تنقص
من أدبه ، فتالله إنه لطريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع
لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة

متناوله عليه إلا أنه مكثار ، وقلّ أن يسلم المكثار من العثار .
فشعره كما قال الأصمعي في شعر أبي العتاهية كساحة الملوك
يقع فيه الخزف والذهب » إلى أن يقول :

« وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر غير
مشغول بغيره فالعجب أنه لا يجيد . وأعجب منه أن يقال إنه
مكثار ، وقصائده في العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . »
وينتهي حافظ على لسان سطّيح في الحكم على شوقي
بقوله :

« ولو أنه مُنَح من رقة المعاني فسلم أسلوبه من ذلك
التعقيد الذي أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع وواحدكم
غير متنازع . »

« قال صاحبي - وهو يكظم غيظه - إنه لم يغادر معني
من معاني العرب والفرنجة إلّا سلبه ثم مسخه ، فإن كان
الأسلوب على ما وصفت وكانت المعاني لغيره فما عسى يكون
فخره علينا وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز : أن البلاغة
لا تقع في اللفظ ولا في المعنى ولكنها تقع في الأسلوب ، فمن
كان أسلوبه يجري على غير هذا الحدّ كان خليقاً أن لا يسمى

بليغاً ، وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ غامض المعنى يحتاج الناظر في كلامه إلى تخوت الرمل وطوالع التنجيم . وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدلّ على شعره وإن كان غفلاً من ذكره . ولقد نظرتُ في طريقة شعره فألفيتها في الغارة على صحائف الأولين فهو لم يغادر معنى في صدره إلاّ سباه ، ولا لفظاً في ذكره إلاّ وأزعجه .

« ألا تترى بربك إلى عظام أبي الطيب وهي تن في قبرها على أبيات شادها صاحبها ، وخر بها صاحب الشوقيات ... » ويتعقب حافظ أبيات شوقي فيمين أخذها من المتنبي وسرقها من البحتري ونظرها في ابن الرومي ، ويمضي صفحات عدة في تعقبه وإحصاء الشواهد على ذلك كأنه أستاذ للأدب أو ناقد للشعر أو مدرس في الجامعة ، ويختتم مطافه في بيان موقفه فيقول فيه :

« فهو عميد جال هذه الدولة الحديدية فلا يكن مثلك وإياه كمثل البحتري وذئبه الذي يقول فيه :

كلانا بها ذئب يحدّث نفسه بصاحبه والحد يتعسه الحد »

هكذا صوّر حافظ موقفه من شوقي وموقف شوقي منه
حتى جمعهما الموت تحت التراب وآواهما الخلود بجناحيه ،
ورفعهما إلى سماء الشعر العربي ، وضمهما إلى أترابهما من
شعراء القرن الثالث والرابع ، فتلاقت أرواحهم بعد ألف
سنة في عناق ووثام بجنان الخلود ورياض الجنة ، يسرحون
ويمرحون يطوف عليهم ولدان مخلدون ، وقد أنساهم النعيم في
الدار الآخرة ما كانوا فيه بهذه الدنيا من شظف النقد وغيره
الأدباء وحسد الحاسدين .

نماذج من شعره

من الخير أن نختم هذه الصفحات ببعض الشعر الذى
يعين القارئ على تصوّر حافظ والتعرف إليه من خلال هذه
الأبيات ، ولكننا لا نطمع فى أن نستوفى الموضوع كله
من جوانب هذه المختارات فذلك طويل عسير ؛ وإنما هى
محاولة لعرض ما لم نستطع عرضه فيما سبق من صفحات .

حريق ميت غمر

شبّت النار فى مدينة ميت غمر من أعمال الدقهلية يوم
الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢ ، وأتت على أكثر الدور
خلال سبعة أيام وكانت الضحايا كثيرة والنكبة عظيمة .

سائلوا الليل عنهم والنهار	كيف باتت نساؤهم والعدارى
كيف أمسى رضيعهم فقدوا	أم وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار	يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم	فاكشف الكرب واحجب الأقدارا

ومر النار أن تكف أذاها
أين طوفان صاحب الفلك يُروى
أشعلت فحمة الدياجى فباتت
غشيتهم والنحس يجرى يمينا
فأغارت وأوجه القوم بيض
أكلت دورهم فلما استقلت
أخرجتهم من الديار عراة
يلبسون الظلام حتى إذا ما
حلة لا تقيهم البرد والح
ومر الغيث أن يسيل انهمارا
هذه النار فهي تشكو الأوارا
تَمَلَأُ الأرض والسماء شرارا
ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
ثم غارت وقد كستهن قارا
لم تغادر صغارهم والكبارا
حذر الموت يطلبون الفرارا
أقبل الصبح يلبسون النهارا
ولا عنهم ترد الغبارا

بركان مارتينيك

ثار البركان فى المارتينيك إحدى جزر الهند الغربية
يوم ٨ مايو سنة ١٩٠٢ فالتهم من الضحايا ما يثير الأسف
والأسى والشاعرية فقال الشاعر يخاطب الأرض :
ألبسوك الدماء فوق الدماء وأروك العداة بعد العداة
فلبست النجيع من عهد قابيه ل وشاهدت مصرع الأبرياء

فلك العذر إن قسوت وإن خذ
 غلط الناس ما طغى جبل الناء
 أخرجوا صدر أمه فأراهم
 أسخطوها فصابرتهم زمانا
 أيها الناس إن يكن ذلك سخط الـ
 ت وإن كنت مصدر الشقاء
 ر بإرسال نفثة في الهواء
 بعض ما أضمرت من البرحاء
 ثم أنحت عليهم بالجزاء
 أرض ما ذا يكون سخط السماء

حظ الشاعر في مصر

حطمتُ اليراع فلا تعجبي
 فما أنت يا مصر دار الأديب
 وكم فيك يا مصر من كاتب
 فلا تعذليني لهذا السكوت
 أيعجبني منك يوم الوفاق
 وكم غضب الناس من قبلنا
 أنا بة العصر إن الغريب
 وعفت البيان فلا تعني
 ولا أنت بالبلد الطيب
 أقال اليراع ولم يكتب
 فقد ضاق بي منك ما ضاق بي
 سكوت الجهاد ولعب الصبي
 لسلب الحقوق ولم تغضب
 مجد بمصر فلا تلعب

أمنية الوطنية

كاشف الكهرباء ليتك تُعنى
 باختراع يروض منا الطباعا

آلة تسحق التواكل في الشر
قد مللنا وقوفنا فيه نبكى
وسئمنا مقامهم كان زيد
ليت شعري متى تنازع مصر
ونراها تفاخر الناس بالأح
ق وتلقى عن الرياء القناعا
حسباً زائلاً ومجداً مضاعاً
عبقرياً وكان عمرو شجاعاً
غيرها المجد في الحياة نزاعاً
يأء فخراً في الخافقين مذاعاً

غلاء الأسعار

أيها المصلحون ضاق بنا العي
عزت السلعة الذليلة حتى
وغدا القوت في يد الناس كاليا
يقطع اليوم طاوياً ولديه
وينخال الرغيف في البعد بدرأ
إن أصاب الرغيف من بعد كد
ش ولم تحسنوا عليه القياما
بات مسح الخداء خطباً جساما
قوت حتى نوى الفقير الصياما
دون ريح القطار ريح الخزامى
ويظن اللحوم صيداً حراما
صاح: من لى بأن أصيب الإداما

عقبي الدهر ...

لا تلم كفتى إذا السيف نبا
صح منى العزم والدهر أبى

رَبِّ سَاعٍ مَبْصَرٍ فِي سَعِيهِ
 مَرْحَباً بِالْخَطْبِ يَبْلُونِي إِذَا
 عَقْنِي الدَّهْرُ وَلَوْلَا أَزْنِي
 إِلَيْهِ يَا دُنْيَا اعْبِسِي أَوْ فَايِسِي
 أَنَا - لَوْلَا أَنْ لِي مِنْ أُمْتِي
 أُمَةٌ قَدْ فَتَتْ فِي سَاعِهَا
 أَخْطَأُ التَّوْفِيقَ فِيهَا طَلِبَا
 كَانَتْ الْعِلْيَاءُ فِيهِ السَّبِيحَا
 أَوْثَرَ الْحَسَنِ عَقَقْتُ الْأَدْبَا
 لَا أَرَى بَرْقَكَ إِلَّا خَلْبَا
 خَاذِلَا - مَا بَتَ أَشْكُو النَّوْبَا
 بَغْضَهَا الْأَهْلَ وَحُبَّ الْغَرْبَا

إِلَى الْمُسْتَعْمَرِينَ

أَيُّهَا الْقَائِمُونَ بِالْأَمْرِ فِينَا
 خَفَضُوا جَيْشَكُمْ وَنَامُوا هَنِيئاً
 وَإِذَا أَعْوَزَتْكُمْ ذَاتُ طَوْقٍ
 إِنَّمَا نَحْنُ وَالْحَمَامُ سَوَاءٌ
 لَا تَظُنُّوا بَنَا الْعُقُوقِ وَلَكِنْ
 لَا تَقِيدُوا مِنْ أُمَّةٍ بِقَتِيلٍ
 جَاءَ جَهَالُنَا بِأَمْرِ وَجَيْتَمٍ
 أَحْسَنُوا الْقَتْلَ إِنْ ضَنْتُمْ بَعْفُو
 أَحْسَنُوا الْقَتْلَ إِنْ ضَنْتُمْ بَعْفُو
 هَلْ نَسِيْتُمْ وَلَا عُنَا وَالْوَدَادَا
 وَابْتَغُوا صَيْدَكُمْ وَجُوبُوا الْبِلَادَا
 بَيْنَ تِلْكَ الرِّبَا فَصِيدُوا الْعِبَادَا
 لَمْ تَغَادِرْ أَطْوَأَقُنَا الْأَجْيَادَا
 أَرَشَدُونَا إِذَا ضَلَلْنَا الرِّشَادَا
 صَادَتْ الشَّمْسُ نَفْسَهُ حِينَ صَادَا
 ضَعُفَ ضِعْفُهُ قَسْوَةً وَاشْتَدَادَا
 أَقْصَا صَاحِبَ أَرْدَتِهِ أَمْ كِيَادَا؟
 أَنْفُوساً أَصَبْتُمْ أَمْ جَمَادَا؟

إلى الطليان

قد ملأنا البحر من أشلائهم
أعلنوا الحرب وأضمرونا لهم
خبروا فيكتور عنا أنه
أدهش العالم لما أن رأوا
لم يقف في البر إلا ريثما
حاتم الطليان قد قلدتنا
أنت أهديت إلينا عدة
وسلاحاً كان في أيديكم
أكثرنا النزهة في أحيائنا
وأقيموا كل عام موسماً
فدعوهم يملأوا الدنيا كلاماً
أيما حلوا هلاكاً واختراماً
أدهش العالم حرباً ونظاماً
جيشه يسبق في الجرى النعاماً
يسلم الأرواح أو يلقى الزماماً
منه نذكرها عاماً فعاماً
ولباساً وشراباً وطعاماً
ذا كلال فغدا يفرى العظاما
وربانا إنها تشفى السقاما
يشبع الأيتام منا والأيامى

مصر القديمة
بدر بحرين الاحرام والتميز
خبرناكم
والسلامة

هل وقفتم بقمة الهرم الأك
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى
هر يوماً فريتم بعض جهدى
أعجزت طوق صنعة المتحدى

دوما مسّ لونها طول عهد
 من علوم مخبوءة طيّ بردي
 ر وأبلى البلى وأعجز ندّى
 ن ففى مصر كان أول عقد
 من له مثل أولياتى ومجدى
 مان عنى الأصول فى كل حدّ
 فى سماء الدجى فأحكمت رصدى
 قبل عهد اليونان أو عهد (نجد)
 ففرقن البحار يحملن بندى
 لى سريّاً وطالعى غير نكد
 وسالوا البر عن مواقع حردى

حال لون النهار من قدم العهد
 هل فهمتم أسرار ما كان عندى
 ذاك فن التحنيط قد غلب الده
 قد عقدت العهود من عهد فرعو
 إن مجدى فى الأوليات عريق
 أنا أم التشريع قد أخذ الرو
 ورصدت النجوم منذ أضاعت
 وشدا (بنتاعور) فوق ربوعى
 وقديماً بنى الأساطيل قومى
 قبل أسطول (نلسن) كان أسطو
 فسلوا البحر عن بلاء سفينى

إلى الإنكليز

واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
 واملئوا الجو إن أردتم رجوما
 (كنستبل) بالسوط يفرى الأديما
 أو ترونا فى الترب عظاما ربما

حوّلوا النيل واحجبوا الضوء عنا
 واملئوا البحر إن أردتم سفينا
 وأقيموا للعسف فى كل شبر
 إننا لن نحول عن عهد مصر

دنا الموت

لا أراع اليوم من فقد مشيبي	راغني فقد شبابي وأنا
حيث أنسى من عدوّ وحبيب	حنّ جنباي إلى برد الثرى
شدة الدهر ولا شد الخطوب	مضجع لا يشتكى صاحبه
يسمّ الأحياء من عيش رتيب	لا ولا يسمه ذاك الذى
عالم المشرق فى يوم عصيب	قد وقفنا ستة نبكى على
هكذا قبلى وإنى عن قريب	وقف الحمسة قبلى فمضوا

ما فوق مبدأ اللذة

كتاب عميق هام من مؤلفات سيجمند فرويد أنبه من وفق إلى فهم الطبيعة البشرية في تاريخ الفكر الإنساني كله ، يعرض الأسس الأولى التي ينبعث منها سلوك الإنسان وما تنطوي عليه جوانحه من ميل المحبة والكراهية . أول ما ينشر باللغة العربية لتصحيح بعض الشائع من نظريات التحليل النفسي .

ترجمه وقدم له

الدكتور إسحق رمزي

أستاذ علم النفس بجامعة إبراهيم

الثنى ٢٥ قرشاً

دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً

ذخائر العرب

الكتاب السابع
طبقات فحول الشعراء

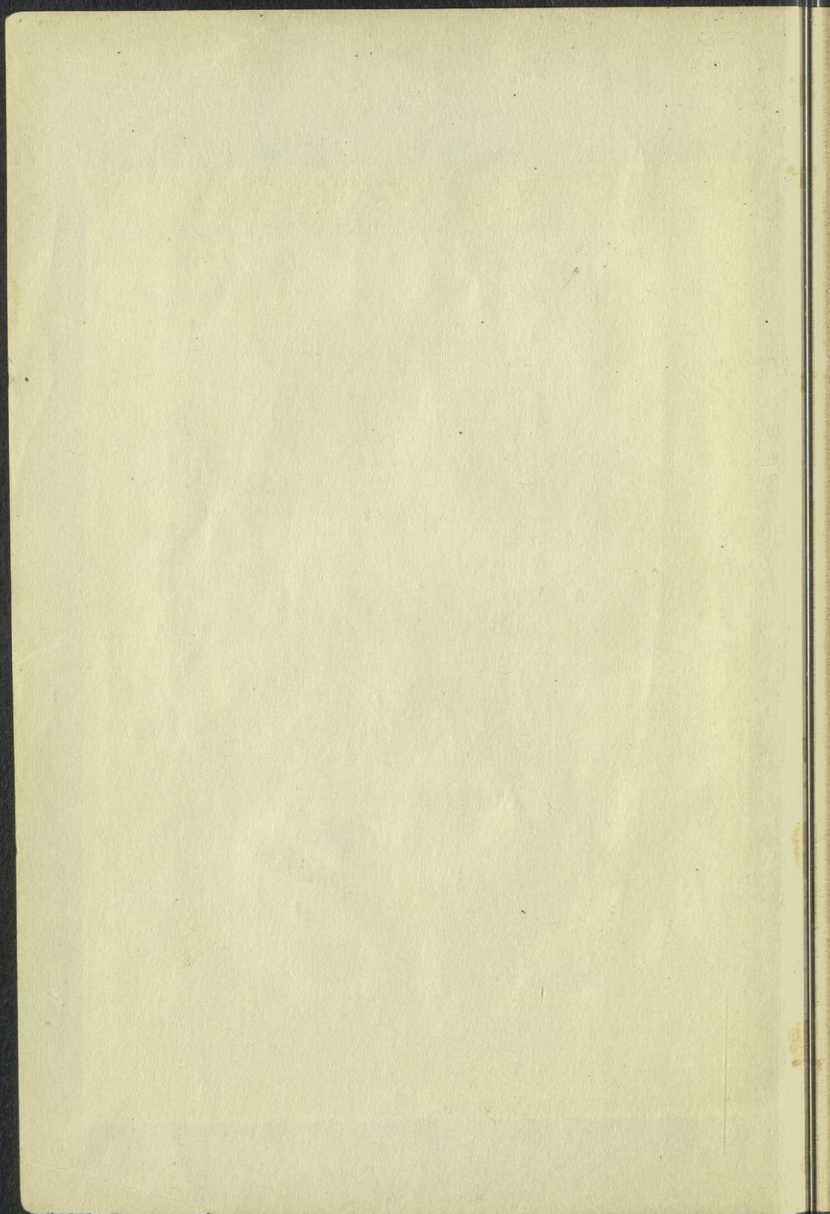
لابن سلام الحمحي
أول ناقد أدبي في الإسلام

تحقيق وشرح الأستاذ
محمود محمد شاكر

كتاب من أهم المراجع في النقد والأدب والشعر
العربي اعتمد فيه المحقق على أقدم مخطوطة وأوفاهها
وصدره يبحث عن ابن سلام وكتابه وضمه منه شروحاً
مبتكرة تجعل من هذا الكتاب ذخيراً من أنفس ذخائر
العرب .

٧٢٠ صفحة من القطع الكبير في حلة قشبية وإخراج
أنيق . الثمن ١٠٠ قرش

دار المعارف بمصر



DATE DUE

JAFET LIB.

~~13 JUN 1977~~



~~JAFET LIB.~~

~~1 JUN 1977~~

~~JAFET LIB.~~

~~1 OCT 1978~~

~~JAFET LIB.~~

~~1 FEB 1979~~

~~1 JUN 1979~~

J. Lib.

1 JUN 1979

الدهان، سامي
شاعر الشعب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01042390



B
I141 dA

General Library

